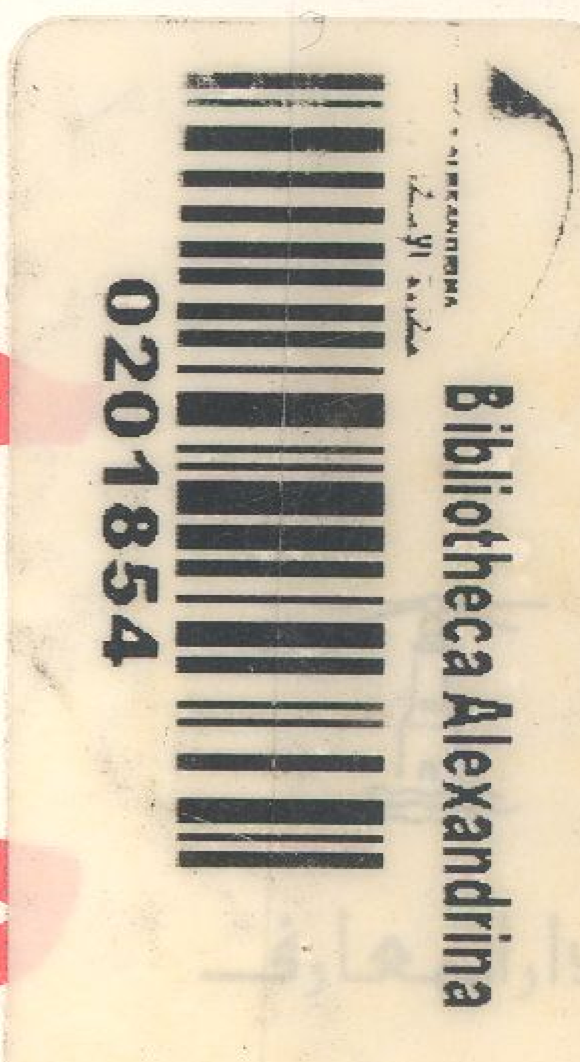
# مصطفى محمود

# حوار مع صديقي المُلحد



# حوار
# مع صديقي الملحد

مصطفى محمود

# حوار مع صديقي الملحد

الطبعة العاشرة



دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

# لم يلد ولم يولد

صديقى رجل يحب الجدل ويهوى الكلام، وهو يعتقد أننا - نحن المؤمنين السذج - نقتات بالأوهام ونضحك على أنفسنا بالجنة والحور العين وتفوتنا لذات الدنيا ومفاتنها.. وصديقي بهذه المناسبة تخرج فى فرنسا وحصل على دكتوراه، وعاش مع الهيبز وأصبح ينكر كل شيء.

قال لى ساخرًا:

- أنتم تقولون: إن الله موجود. وعمدة براهينكم هو قانون «السببية» الذى ينص على أن لكل صنعة صانعًا، ولكل خلق خالقًا، ولكل وجود مُوجِدًا.. النسيج يدل على النسّاج، والرسم على الرسّام، والنقش على النقّاش، والكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الإله القدير الذي خلقه.

صدقنا وآمنا بهذا الخالق.. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل.. ومن خلق الخالق.. من خلق الله الذى تحدثوننا عنه.. ألا تقودنا نفس استدلالاتكم إلى هذا.. وتبعًا لنفس قانون السببية.. ما رأيكم فى هذا المطب دام فضلكم؟

ونحن نقول له: سؤالك فاسد.. ولا مطب ولا حاجة فأنت تسلم بأن الله خالق ثم تقول مَن خلقه؟! فتجعل منه خالقًا ومخلوقًا فى نفس الجملة وَهذا تناقض.

والوجه الآخر لفساد السؤال أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته.. فالسببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان.

والله الذى خلق الزمان والمكان هو بالضرورة فوق الزمان والمكان ولا يصح لنا أن نتصوره مقيدًا بالزمان والمكان، ولا بقوانين الزمان والمكان.

والله هو الذى خلق قانون السببية، فلا يجوز أن نتصوره خاضعًا لقانون السببية الذى خلقه.

وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التى تتحرك بزمبلك، وتتصور أن الإنسان الذى صنعها لابد هو الآخر يتحرك بزمبلك.. فإذا قلنا لها بل هو يتحرك من تلقاء نفسه.. قالت: مستحيل أن يتحرك شىء من تلقاء نفسه.. إنى أرى فى عالمى كل شىء يتحرك بزمبلك.

وأنت بالمثل لا تتصور أن الله موجود بذاته بدون موجِد.. لمجرد أنك ترى كل شىء حولك فى حاجة إلى موجد.

وأنت كمن يظن أن الله محتاج إلى براشوت لينزل على البشر وإلى أتوبيس سريع ليصل إلى أنبيائه، سبحانه وتعالى عن هذه الأوصاف علوًا كبيرًا.

«وعمانويل كانت» الفيلسوف الألمانى فى كتابه «نقد العقل الخالص» أدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء وأنه مُهيأ بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط، فى حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهى.. وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل.. شوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل.. كما أن ظمأنا إلى الماء هو دليلنا على وجود الماء.

أما أرسطو فقد استطرد فى تسلسل الأسباب قائلا: إن الكرسى من الخشب، والخشب من الشجرة، والشجرة من البذرة، والبذرة من الزارع.. واضطر إلى القول بأن هذا الاستطراد المتسلسل فى الزمن اللانهائى لابد أن

ينتهى بنا فى البدء الأول إلى سبب فى غير حاجة إلى سبب.. سبب أول أو محرك أول فى غير حاجة إلى من يحركه.. خالق فى غير حاجة إلى خالق.. وهو نفس ما نقوله عن الله.

أما ابن عربى فكان رده على هذا السؤال «سؤال مَنْ خلق الخالق».. بأنه سؤال لا يرد إلا على عقل فاسد.. فالله هو الذى يبرهن على الوجود ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانًا على الله.. تمامًا كما نقول إن النور يبرهن على النهار.. ونعكس الآية لو قلنا إن النهار يبرهن على النور.

يقول الله فى حديث قدسى:

«أنا يُستدل بى.. أنا لا يُستدل علىّ»

فالله هو الدليل الذى لا يحتاج إلى دليل، لأن الله هو الحق الواضح بذاته.. وهو الحجة على كل شىء.. الله ظاهر فى النظام والدقة والجمال والأحكام.. فى ورقة الشجر.. فى ريشة الطاووس.. فى جناح الفراش.. فى عطر الورد.. فى صدح البلبل.. فى ترابط النجوم والكواكب فى هذا القصيد السيمفونى الذى اسمه الكون.. لو قلنا إن كل هذا جاء مصادفة.. لكنا كمن يتصور أن إلقاء حروف مطبعة فى الهواء يمكن أن يؤدى إلى تجمعها تلقائيًا على شكل قصيدة شعر لشكسبير بدون شاعر وبدون مؤلف.

والقرآن يغنينا عن هذه المجادلات بكلمات قليلة وبليغة فيقول بوضوح قاطع ودون تفلسف:

﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد﴾.

ويسألنا صاحبنا ساخرًا: ولماذا تقولون إن الله واحد...؟ لماذا لا يكون الآلهة متعددين..؟ يتوزعون بينهم الاختصاصات؟

وسوف نرد عليه بالمنطق الذى يعترف به.. بالعلم وليس بالقرآن.

سوف نقول له إن الخالق واحد، لأن الكون كله مبنى من خامة واحدة وبخطة واحدة.. فمن الأيدروجين تألفت العناصر الاثنان والتسعون التى فى

جدول «مندليف» بنفس الطريقة، «بالإدماج» وإطلاق الطاقة الذرية التى تتأجج بها النجوم وتشتعل الشموس فى فضاء الكون.

كما أن الحياة كلها بنيت من مركبات الكربون «جميع صنوف الحياة تتفحم بالاحتراق» وعلى مقتضى خطة تشريحية واحدة. تشريح الضفدعة، والأرنب، والحمامة، والتمساح، والزرافة، والحوت، يكشف عن خطة تشريحية واحدة، نفس الشرايين والأوردة وغرفات القلب، ونفس العظام، كل عظمة لها نظيرتها.. الجناح فى الحمامة هو الذراع فى الضفدعة.. نفس العظام مع تحور طفيف.. والعنق فى الزرافة على طوله نجد فيه نفس الفقرات السبع التى تجدها فى عنق القنفذ.. والجهاز العصبى هو هو فى الجميع، يتألف من مخ وحبل شوكى وأعصاب حس وأعصاب حركة.. والجهاز الهضمى من معدة واثنا عشر، وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة والجهاز التناسلى نفس المبيض والرحم والخصية وقنواتها.. والجهاز البولى، الكلية والحالب، وحويصلة البول.. ثم الوحدة التشريحية فى الجميع هى الخلية.. وهى فى النبات كما فى الحيوان كما فى الإنسان، بنفس المواصفات.. تتنفس وتتكاثر وتموت وتولد بنفس الطريقة.

فأية غرابة بعد هذا أن نقول إن الخالق واحد؟.. ألا تدل على ذلك وحدة الأساليب.

ولماذا يتعدد الكامل..؟ وهل به نقص ليحتاج إلى من يكمله؟.. إنما يتعدد الناقصون.

ولو تعدد الآلهة لاختلفوا، ولذهب كلُّ إله بما خلق، ولفسدت الأرض.

والله له الكبرياء والجبروت وهذه صفات لا تحتمل الشركة.

ويسخر صاحبنا من معنى الربوبية كما نفهمه.. ويقول أليس عجيبًا ذلك الرب الذى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، فيأخذ بناصية الدابة، ويوحى إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلاَّ أحصاها عددًا، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا

بعلمه.. إذا عثرت قدم فى حفرة فهو الذى أعثرها.. وإذا سقطت ذبابة فى طعام فهو الذى أسقطها.. وإذا تعطلت الحرارة فى تليفون فهو الذى عطلها.. وإذا امتنع المطر فهو الذى منعه، وإذا هطل فهو الذى أهطله.. ألا تشغلون إلهكم بالكثير التافه من الأمور بهذا الفهم.

ولا أفهم أيكون الرب فى نظر السائل أجدر بالربوبية لو أنه أعفى نفسه من هذه المسئوليات وأخذ إجازة وأدار ظهره للكون الذى خلقه وتركه يأكل بعضه بعضًا!

هل الرب الجدير فى نظره هو رب عاطل معَمى عليه لا يسمع ولا يرى ولا يستجيب ولا يعتنى بمخلوقاته؟ ثم من أين السائل بالعلم بأن موضوعًا ما تافه لا يستحق تدخل الإله، وموضوعًا آخر مهم وخطير الشأن؟

إن الذبابة التى تبدو تافهة فى نظر السائل فلا يهم فى نظره أن تسقط فى الطعام أو لا تسقط، هذه الذبابة يمكن أن تغير التاريخ بسقوطها التافه ذلك.. فإنها يمكن أن تنقل الكوليرا إلى جيش، وتكسب معركة لطرف آخر، تتغير بعدها موازين التاريخ كله.

ألم تقتل الإسكندر الأكبر بعوضة؟

إن أتفه المقدمات ممكن أن تؤدى إلى أخطر النتائج.. وأخطر المقدمات ممكن أن تنتهى إلى لاشىء.. وعالم الغيب وحده هو الذى يعلم قيمة كل شىء.

وهل تصور السائل نفسه وصيًا على الله يحدد له اختصاصاته.. تقدس وتنزه ربنا عن هذا التصور الساذج.

إنما الإله الجدير بالألوهية هنا هو الإله الذى أحاط بكل شىء علمًا.. لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

الإله السميع المجيب، المعتنى بمخلوقاته.

# إذا كان الله قدَّرَ عليَّ أفعالى فلماذا يحاسبنى؟

قال صديقى فى شماتة وقد تصور أنه أمسكنى من عنقى وأنه لا مهرب لى هذه المرة:

– أنتم تقولون إن الله يجرى كل شىء فى مملكته بقضاء وقدر، وإن الله قدَّرَ علينا أفعالنا، فإذا كان هذا هو حالى، وأن أفعالى كلها مقدرة عنده فلماذا يحاسبنى عليها؟

لا تقل لى كعادتك.. أنا مخير.. فليس هناك فرية أكبر من هذه الفرية.

ودعنى أسألك:

هل خيرت فى ميلادى وجنسى وطولى وعرضى ولونى ووطنى؟

هل باختيارى تشرق الشمس ويغرب القمر؟

هل باختيارى ينزل علىَّ القضاء ويفاجئنى الموت وأقع فى المأساة فلا أجد مخرجًا إلا الجريمة.. لماذا يُكرهنى الله على فعل ثم يؤاخذنى عليه؟

وإذا قلت إنك حر، وإن لك مشيئة إلى جوار مشيئة الله ألا تشرك بهذا

الكلام وتقع فى القول بتعدد المشيئات؟

ثم ما قولك فى حكم البيئة والظروف، وفى الحتميات التى يقول بها الماديون التاريخيون؟

أطلق صاحبى هذه الرصاصات ثم راح يتنفس الصعداء فى راحة وقد تصور أنى توفيت وانتهيت، ولم يبق أمامه إلا استحضار الكفن.

قلت له فى هدوء:

- أنت واقع فى عدة مغالطات.. فأفعالك معلومة عند الله فى كتابه، ولكنها ليست مقدورة عليك بالإكراه.. إنها مقدرة فى علمه فقط.. كما تقدر أنت بعلمك أن ابنك سوف يزنى.. ثم يحدث أن يزنى بالفعل.. فهل أكرهته.. أو كان هذا تقديرًا فى العلم وقد أصاب علمك.

أما كلامك عن الحرية بأنها فرية، وتدليلك على ذلك بأنك لم تخير فى ميلادك ولا فى جنسك ولا فى طولك ولا فى لونك ولا فى موطنك، وأنك لا تملك نقل الشمس من مكانها.. فهو تخليط آخر.

وسبب التخليط هذه المرة أنك تتصور الحرية بطريقة غير تلك التى نتصورها نحن المؤمنون.

أنت تتكلم عن حرية مطلقة.. فتقول.. أكنت أستطيع أن أخلق نفسى أبيض أو أسود أو طويلا أو قصيرًا.. هل بإمكانى أن أنقل الشمس من مكانها أو أوقفها فى مدارها.. أين حريتى؟

ونحن نقول له: أنت تسأل عن حرية مطلقة.. حرية التصرف فى الكون وهذه ملك لله وحده.. نحن أيضًا لا نقول بهذه الحرية:

﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ ٦٨ - القصص.

ليس لأحد الخيرة فى مسألة الخلق، لأن الله هو الذى يخلق ما يشاء ويختار. ولن يحاسبك الله على قِصرك ولن يعاتبك على طولك، ولن يعاقبك لأنك لم

توقف الشمس فى مدارها.

ولكن مجال المساءلة هو مجال التكليف.. وأنت فى هذا المجال حر.. وهذه هى الحدود التى نتكلم فيها.

أنت حر فى أن تقمع شهوتك وتلجم غضبك وتقاوم نفسك وتزجر نياتك الشريرة وتشجع ميولك الخيرة.

أنت تستطيع أن تجود بمالك ونفسك.
أنت تستطيع أن تصدق وأن تكذب
وتستطيع أن تكف يدك عن المال الحرام.
وتستطيع أن تكف بصرك عن عورات الآخرين.
وتستطيع أن تمسك لسانك عن السباب والغيبة والنميمة.
فى هذا المجال نحن أحرار.
وفى هذا المجال نحاسب ونسأل.

الحرية التى يدور حولها البحث هى الحرية النسبية وليست الحرية المطلقة. حرية الإنسان فى مجال التكليف.

وهذه الحرية حقيقة ودليلنا عليها هو شعورنا الفطرى بها فى داخلنا فنحن نشعر بالمسئولية وبالندم على الخطأ، وبالراحة للعمل الطيب.. ونحن نشعر فى كل لحظة أننا نختار ونوازن بين احتمالات متعددة، بل إن وظيفة عقلنا الأولى هى الترجيح والاختيار بين البديلات.

ونحن نفرق بشكل واضح وحاسم بين يدنا وهى ترتعش بالحمى، ويدنا وهى تكتب خطابًا.. فنقول إن حركة الأولى جبرية قهرية، والحركة الثانية حرة اختيارية.. ولو كنا مسيرين فى الحالتين لما استطعنا التفرقة.

ويؤكد هذه الحرية ما نشعر به من استحالة إكراه القلب على شىء لا يرضاه تحت أى ضغط فيمكنك أن تُكره امرأة بالتهديد والضرب على أن تخلع ثيابها.. ولكنك لا تستطيع بأى ضغط أو تهديد أن تجعلها تحبك من قلبها..

ومعنى هذا أن الله أعتق قلوبنا من كل صنوف الإكراه والإجبار، وأنه فطرها حرة.

ولهذا جعل الله القلب والنية عمدة الأحكام. فالمؤمن الذى ينطق بعبارة الشرك والكفر تحت التهديد والتعذيب لا يحاسَب على ذلك طالما أن قلبه من الداخل مطمئن بالإيمان، وقد استثناه الله من المؤاخذة فى قوله تعالى:

﴿إلا من أكرهَ وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ١٠٦ – النحل

والوجه الآخر من الخلط فى هذه المسألة أن بعض الناس يفهم حرية الإنسان بأنها علو على المشيئة، وانفراد بالأمر، فيتهم القائلين بالحرية بأنهم أشركوا بالله وجعلوا له أندادًا يأمرون كأمره، ويحكمون كحكمه، وهذا ما فهمته أنت أيضًا.. فقلت بتعدد المشيئات.. وهو فهم خاطئ.. فالحرية الإنسانية لا تعلو على المشيئة الإلهية.

إن الإنسان قد يفعل بحريته ما ينافى الرضا الإلهى ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما ينافى المشيئة.

الله أعطانا الحرية أن نعلو على رضاه «فنعصيه»، ولكن لم يعط أحدًا الحرية فى أن يعلو على مشيئته.. وهنا وجه آخر من وجوه نسبية الحرية الإنسانية.

وكل ما يحدث منا داخل فى المشيئة الإلهية وضمنها، وإن خالف الرضا الإلهى وجانب الشريعة.

وحريتنا ذاتها كانت منحة إلهية وهبة منحها لنا الخالق باختياره.. ولم نأخذها منه كرهًا ولا غصبًا.

إن حريتنا كانت عين مشيئته.

ومن هنا معنى الآية:

﴿وما تشاءون إلّا أن يشاء الله﴾ ٣٠ – الإنسان.

لأن مشيئتنا ضمن مشيئته، ومنحة منه، وهبة من كرمه وفضله، فهى ضمن

إرادته. لا ثنائية ولا تناقض، ولا منافسة منا لأمر الله وحكمه.

والقول بالحرية بهذا المعنى لا ينافى التوحيد، ولا يجعل لله أندادًا يحكمون كحكمه ويأمرون كأمره.. فإن حرياتنا كانت عين أمره ومشيئته وحكمه.

والوجه الثالث للخلط أن بعض من تناولوا مسألة القضاء والقدر والتسيير والتخيير.. فهموا القضاء والقدر بأنه إكراه للإنسان على غير طبعه وطبيعته وهذا خطأ وقعت فيه أنت أيضًا.. وقد نفى الله عن نفسه الإكراه بآيات صريحة:

﴿إن نشأ ننَزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾
٤ - الشعراء

والمعنى واضح.. أنه كان من الممكن أن نُكره الناس على الإيمان بالآيات الملزمة، ولكننا لم نفعل.. لأنه ليس فى سنتنا الإكراه.

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد مِنَ الغى﴾ ٢٥٦ - البقرة

﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا، أفأنْت تُكْره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ ٩٩ - يونس

ليس فى سُنة الله الإكراه.

والقضاء والقدر لا يصح أن يفهم على أنه إكراه للناس على غير طبائعهم.. وإنما على العكس، الله يقضى على كل إنسان من جنس نيته، ويشاء له من جنس مشيئته، ويريد له من جنس إرادته، لا ثنائية.. تسيير الله هو عين تخيير العبد، لأن الله يسير كل امرئ على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته.

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ ٢٠ - الشورى

﴿فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا﴾ ١٠ - البقرة

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ ١٧ - محمد

وهو يخاطب الأسرى فى القرآن:

﴿إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم﴾ ٧٠ - الأنفال

الله يقضى ويقدر، ويجرى قضاؤه وقدره على مقتضى النية والقلب.. إن شرًا فَشر وإن خيرًا فخير.

ومعنى هذا أنه لا ثنائية.. التسيير هو عين التخيير، ولا ثنائية ولا تناقض.

الله يسيرنا إلى ما اخترناه بقلوبنا ونياتنا، فلا ظلم ولا إكراه ولا جبر، ولا قهر لنا على غير طبائعنا.

﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى، وأمّا مَن بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى﴾ ٥ - ١٠- الليل

﴿وما رمَيت إذ رميت ولكن الله رَمى﴾ ١٧ - الأنفال

هنا تلتقى رمية العبد والرمية المقدرة من الرب، فتكون رمية واحدة.. وهذا مفتاح لغز القضاء والقدر.. على العبد النية، وعلى الله التمكين، إن خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

والحرية الإنسانية ليست مقدارًا ثابتًا، ولكنها قدرة نسبية قابلة للزيادة.

الإنسان يستطيع أن يزيد من حريته بالعلم.. باختراع الوسائل والأدوات والمواصلات استطاع الإنسان أن يطوى الأرض، ويهزم المسافات ويخترق قيود الزمان والمكان.. وبدراسة قوانين البيئة استطاع أن يتحكم فيها ويسخرها لخدمته، وعرف كيف يهزم الحر والبرد والظلام، وبذلك يضاعف من حرياته فى مجال الفعل.

العلم كان وسيلة إلى كسر القيود والأغلال وإطلاق الحرية.

أما الوسيلة الثانية فكانت الدين.. الاستمداد من الله بالتقرب منه.. والأخذ عنه بالوحى والتلقى والتأييد.. وهذه وسيلة الأنبياء ومن فى دربهم.

سخر سليمان الجن وركب الريح وكلم الطير بمعونة الله ومدده.. وشق موسى البحر.. وأحيا المسيح الموتى، ومشى على الماء، وأبرأ الأكمه والأبرص والأعمى.

ونقرأ عن الأولياء أصحاب الكرامات الذين تطوى لهم الأرض وتكشف لهم المغيبات.

وهى درجات من الحرية اكتسبوها بالاجتهاد فى العبادة والتقرب إلى الله والتحبب إليه.. فأفاض عليهم من علمه المكنون.

إنه العلم مرة أخرى.

ولكنه هذه المرة العلم «اللّدنى».

ولهذا يلخص أبو حامد الغزالى مشكلة المخير والمسير قائلا فى كلمتين:

الإنسان مخير فيما يعلم..

مسير فيما لا يعلم.

وهو يعنى بهذا أنه كلما اتسع علمه اتسع مجال حريته.. سواء كان العلم المقصود هو العلم الموضوعى أو العلم اللدنى.

ويخطئ المفكرون الماديون أشد الخطأ حينما يتصورون الإنسان أسير الحتميات التاريخية والطبقية. ويجعلون منه حلقة فى سلسلة من الحلقات لا فكاك له، ولا مهرب من الخضوع لقوانين الاقتصاد وحركة المجتمع، كأنما هو قشة فى تيار بلا ذراعين وبلا إرادة.

والكلمة التى يرددونها ولا يتعبون من ترديدها وكأنها قانون: «حتمية الصراع الطبقى» وهى كلمة خاطئة فى التحليل العلمى، لأنه لا حتميات فى المجال الإنسانى، وإنما على الأكثر ترجيحات واحتمالات.. وهذا هو الفرق بين الإنسان، وبين التروس، والآلات والأجسام المادية.. فيمكن التنبؤ بخسوف الشمس بالدقيقة والثانية، ويمكن التنبؤ بحركاتها المستقبلة على مدى أيام وسنين.. أما الإنسان فلا يمكن أن يعلم أحد ماذا يضمر وماذا يخبئ

فى نياته، وماذا يفعل غدًا أو بعد غد.. ولا يمكن معرفة هذا إلا على سبيل الاحتمال والترجيح والتخمين، وذلك على فرض توفر المعلومات الكافية للحكم.

وقد أخطأت جميع تنبؤات كارل ماركس، فلم تبدأ الشيوعية فى بلد متقدم كما تنبأ، بل فى بلد متخلف، ولم يتفاقم الصراع بين الرأسمالية والشيوعية، بل تقارب الاثنان إلى حالة من التعايش السلمى، وأكثر من هذا فتحت البلاد الشيوعية أبوابها لرأس المال الأمريكى.. ولم تتصاعد التناقضات فى المجتمع الرأسمالى إلى الإفلاس الذى توقعه كارل ماركس، بل على العكس، ازدهر الاقتصاد الرأسمالى ووقع الشقاق والخلاف بين أطراف المعسكر الاشتراكى ذاته.

أخطأت حسابات ماركس جميعها دالة بذلك على خطأ منهجه الحتمى.. ورأينا صراع العصر الذى يحرك التاريخ هو الصراع اللاطبقى بين الصين وروسيا، وليس الصراع الطبقى الذى جعله ماركس عنوان منهجه.. وكلها شواهد على فشل الفكر المادى فى فهم الإنسان والتاريخ، وتخبطه فى حساب المستقبل.. وجاء كل ذلك نتيجة خطأ جوهرى، هو أن الفكر المادى تصور أنّ الإنسان ذبابة فى شبكة من الحتميات.. ونسى تمامًا أنّ الإنسان حر.. وأن حريته حقيقة.

أمّا كلام الماديين عن حكم البيئة والمجتمع والظروف، وأن الإنسان لا يعيش وحده ولا تتحرك حريته فى فراغ.

نقول ردًّا على هذا الكلام: إن حكم البيئة والمجتمع والظروف كمقاومات للحرية الفردية إنما يؤكد المعنى الجدلى لهذه الحرية ولاينفيه.. فالحرية الفردية.. لاتؤكد ذاتها إلّا فى وجه مقاومة تزحزحها.. أما إذا كان الإنسان يتحرك فى فراغ بلامقاومة من أى نوع فإنه لايكون حرًّا بالمعنى المفهوم للحرية، لأنه لن تكون هناك عقبة يتغلب عليها ويؤكد حريته من خلالها.

# لماذا خلق الله الشر؟

قال صاحبى ساخرًا:

كيف تزعمون أن إلهكم كامل، ورحمن، ورحيم، وكريم، ورءوف، وهو قد خلق كل هذه الشرور فى العالم؟ المرض والشيخوخة والموت والزلزال والبركان والميكروب والسم والحر والزمهرير وآلام السرطان التى لا تعفى الطفل الوليد ولا الشيخ الطاعن.

إذا كان الله محبة وجمالا وخيرًا فكيف يخلق الكراهية والقبح والشر؟

والمشكلة التى أثارها صاحبى من المشاكل الأساسية فى الفلسفة، وقد انقسمت حولها مدارس الفكر واختلفت حولها الآراء.

ونحن نقول: إن الله كله رحمة وكله خير، وإنه لم يأمر بالشر، ولكنه سمح به لحكمة:

﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون. قل أمر ربى بالقسط، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ ٢٨ - ٢٩ - الأعراف

الله يأمر بالعدل والمحبة والإحسان والعفو والخير وهو لا يرضى إلا بالطيب.

فلماذا ترك الظالم يظلم والقاتل يقتل والسارق يسرق.

لأن الله أرادنا أحرارًا.. والحرية اقتضت الخطأ، ولا معنى للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة والخطأ والصواب، والاختيار الحر بين المعصية والطاعة.

وكان فى قدرة الله أن يجعلنا جميعًا أخيارًا. وذلك بأن يقهرنا على الطاعة قهرًا وكان ذلك يقتضى أن يسلبنا حرية الاختيار.

وفى دستور الله وسنته أن الحرية مع الألم أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة.. ولهذا تركنا نخطئ ونتألم ونتعلم، وهذه هى الحكمة فى سماحه بالشر.

ومع ذلك فإن النظر المنصف المحايد سوف يكشف لنا أن الخير فى الوجود هو القاعدة. وأن الشر هو الاستثناء فالصحة هى القاعدة والمرض استثناء، ونحن نقضى معظم سنوات عمرنا فى صحة ولا يزورنا المرض إلا أيامًا قليلة.. وبالمثل الزلازل هى فى مجملها بضع دقائق فى عمر الكرة الأرضية الذى يحصى بملايين السنين، وكذلك البراكين، وكذلك الحروب. هى تشنجات قصيرة فى حياة الأمم بين فترات سلام طويلة ممتدة.

ثم إننا نرى لكل شىء وجْهَ خير، فالمرض يخلف وقاية، والألم يربى الصلابة والجلد والتحمل، والزلازل تنفس عن الضغط المكبوت فى داخل الكرة الأرضية، وتحمى القشرة الأرضية من الانفجار، وتعيد الجبال إلى أماكنها كأحزمة وثقالات تثبت القشرة الأرضية فى مكانها، والبراكين تنفث المعادن والثروات الخبيئة الباطنة، وتكسو الأرض بتربة بركانية خصبة.. والحروب تدمج الأمم وتلاقح بينها. وتجمعها فى كتل وأحلاف. ثم فى عصبة أمم، ثم فى مجلس أمن هو بمثابة محكمة عالمية للتشاكى والتصالح.. وأعظم الاختراعات خرجت فى أثناء الحروب: البنسلين، الذّرة، الصواريخ،

الطائرات النفاثة، كلها خرجت من أتون الحروب.

ومن سم الثعبان يخرج الترياق.

ومن الميكروب نصنع اللقاح.

ولولا أن أجدادنا ماتوا لما كنا الآن فى مناصبنا. والشر فى الكون كالظل فى الصورة إذا اقتربت منه خيل إليك أنه عيب ونقص فى الصورة.. ولكن إذا ابتعدت ونظرت إلى الصورة ككل نظرة شاملة اكتشفت أنه ضرورى ولا غنى عنه وأنه يؤدى وظيفة جمالية فى البناء العام للصورة.

وهل كان يمكننا أن نعرف الصحة لولا المرض.. إن الصحة تظل تاجا على رءوسنا لا نراه ولا نعرفه إلّا حينما نمرض.

وبالمثل ما كان ممكنا أن نعرف الجمال لولا القبح، ولا الوضع الطبيعى لولا الوضع الشاذ.

ولهذا يقول الفيلسوف أبو حامد الغزالى: إن نقص الكون هو عين كماله، مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته، ولو أنه استقام لما رمَى.

وظيفة أخرى للمشقات والآلام.. أنها هى التى تفرز الناس وتكشف معادنهم.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّال

إنها الامتحان الذى نعرف به أنفسنا.. والابتلاء الذى تتحدد به مراتبنا عند الله.

ثم إن الدنيا كلها ليست سوى فصل واحد من رواية سوف تتعدد فصولها، فالموت ليس نهاية القصة ولكن بدايتها.

ولا يجوز أن نحكم على مسرحية من فصل واحد. ولا أن نرفض كتابًا لأن الصفحة الأولى لم تعجبنا.

الحكم هنا ناقص.

ولا يمكن استطلاع الحكمة كلها إلّا فى آخر المطاف.. ثم ما هو البديل الذى يتصوره السائل الذى يسخر منا.

هل يريد أن يعيش حياة بلا موت، بلا مرض. بلا شيخوخة، بلا نقص، بلا عجز، بلا قيود، بلا أحزان، بلا آلام.

هل يطلب كمالاً مطلقًا؟

ولكن الكمال المطلق لله وحده.

والكامل واحد لا يتعدد.. ولماذا يتعدد؟ وماذا ينقصه ليجده فى واحد آخر غيره؟.

معنى هذا أن صاحبنا لن يرضيه إلّا أن يكون هو الله ذاته، وهو التطاول بعينه.

ودعونا نسخر منه بدورنا، هو وأمثاله ممن لا يعجبهم شىء.

هؤلاء الذين يريدونها جنة.

ماذا فعلوا ليستحقوها جنة.

وماذا قدم صاحبنا للإنسانية ليجعل من نفسه الله الواحد القهار الذى يقول للشىء كن فيكون.

إن جدتى أكثر ذكاء من الأستاذ الدكتور المتخرج فى فرنسا حينما تقول فى بساطة: «خير من الله، شر من نفوسنا».

إنها كلمات قليلة ولكنها تلخيص أمين للمشكلة كلها.. فالله أرسل الرياح وأجرى النهر، ولكن ربان السفينة الجشع ملأ سفينته بالناس والبضائع بأكثر مما تحتمل فغرقت فمضى يسب الله والقدر.. وما ذنب الله؟ الله أرسل الرياح رخاء، وأجرى النهر خيرًا.. ولكن جشع النفوس وطمعها هو الذى قلب هذا الخير شرًّا.

ما أصدقها من كلمات جميلة طيبة.

«خير من الله، شر من نفوسنا».

## وما ذنب الذى لم يصله قرآن؟

هرش صاحبنا الدكتور رأسه.

كان من الواضح أنه يبحث لى فى الدكتوراه عن حفرة أو مطب يدق عنقى فيه.. ثم قال فى هدوء وهو يرتب كلماته:

حسنًا.. وما رأيك فى هذا الإنسان الذى لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب.. ولم يأته نبى.. ما ذنبه؟ وما مصيره عندكم يوم الحساب؟ مثل إسكيمو فى أقاصى القطبين.. أو زنجى فى الغابات.. ماذا يكون حظه بين يدى إلهكم يوم القيامة؟

قلت له:

دعنى أصحح معلوماتك أولا.. فقد بنيت أسئلتك على مقدمة خاطئة.. فالله أخبرنا بأنه لم يحرم أحدًا من رحمته ووحيه وكلماته وآياته.

﴿وإن من أمّة إلاّ خلا فيها نذير﴾ ٢٤ - فاطر

﴿ولقد بعثنا فى كل أمّة رسولا﴾ ٢٦ - النحل

والرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن ليسُوا كل الرسل.. وإنما هناك آلاف غيرهم لا نعلم عنهم شيئًا.. والله يقول لنبيه عن الرسل:

**﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾** ٧٨ - غافر

والله يوحى إلى كل شىء حتى النحل.

**﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾** ٦٨ - النحل

وقد يكون الوحى كتابًا يلقيه جبريل، وقد يكون نورًا يلقيه الله فى قلب العبد، وقد يكون انشراحًا فى الصدر، وقد يكون حكمة، وقد يكون حقيقة، وقد يكون فهمًا وقد يكون خشوعًا ورهبة وتقوى.

وما من أحد يرهف قلبه ويرهف سمعه إلاّ ويتلقى من الله فضلا.

أما الذين يصمون آذانهم وقلوبهم فلا تنفعهم كتب ولا رسل ولا معجزات ولو كثرت.

والله قال إنه يختص برحمته من يشاء.. وإنه لايُسأل عمّا يفعل.

وقد يريد الله لحكمة يعلمها أن ينذر أحدًا وأن يعذر آخر فيقبل منه أهون الإيمان.

ومن يدرينا.. ربما كانت مجرد لفتة من ذلك الزنجى البدائى إلى السماء فى رهبة هى عند الله منجية ومقبولة أكثر من صلاتنا.

على أن القراءة المتأملة لأديان هؤلاء الزنوج البدائيين تدل على أنه كان لهم رسل ورسالات سماوية مثل رسالاتنا.

فى قبيلة الماو ماو مثلا نقرأ أنهم يؤمنون بإله يسمونه «موجايى» ويصفونه بأنه واحد أحد، لم يلد ولم يولد، وليس له كفو ولا شبيه.. وأنه لا يرى ولا يعرف إلا من آثاره وأفعاله، وأنه خالق، رزّاق، وهّاب، رحيم، يشفى المريض، وينجد المأزوم، وينزل المطر، ويسمع الدعاء، ويصفونه بأن البرق

خنجره، والرعد وقع خطاه.

أليس هذا الـ «موجابى» هو إلهنا بعينه. ومن أين جاءهم هذا العلم إلا أن يكون فى تاريخهم رسول ومبلغ جاء به.. ثم تقادم عليه العهد كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات فشوهت هذا النقاء الدينى.

وفى قبيلة، نيام نيام، نقرأ أنهم يؤمنون بإله واحد يسمونه «مبولى» ويقولون إن كل شىء فى الغابة يتحرك بإرادة «مبولى» وإنه يسلط الصواعق على الأشرار من البشر.. ويكافئ الأخيار بالرزق والبركة والأمان.

وفى قبيلة الشيلوك يؤمنون بإله واحد يسمونه «جوك»، ويصفونه بأنه خفى وظاهر.. وأنه فى السماء وفى كل مكان، وأنه خالق كل شىء.

وفى قبيلة «الدنكا» يؤمنون بإله واحد يسمونه «نيالاك» وهى كلمة ترجمتها الحرفية.. الذى فى السماء.. أو الأعلى، ماذا نسمى هذه العقائد سوى إسلام؟

إن هى إلا رسالات كان لها فى تاريخ هؤلاء الأقوام رسل.

إن الدين لواحد.

**﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾** ٦٢ - البقرة

حتى الصابئين الذين قدسوا النجوم على أنها آيات من آيات الله وآمنوا بالله الواحد وبالآخرة والبعث والحساب وعملوا الصالحات فلهم أجرهم عند ربهم.

ومعلوم أن رحمة الله تتفاوت.

وهناك من يُولد أعمى، وهناك من يولد مبصرًا، وهناك من عاش أيام موسى ورآه رأى العين وهو يشق البحر بعصاه.. وهناك من عاش أيام المسيح

وراه يُحيى الموتى.. أما نحن فلا نعلم عن هذه الآيات إلا سمعًا.. وليس الخبر كالعيان.. وليس من رأى كمن سمع.

ومع ذلك فالإيمان وعدمه ليس رهنًا بالمعجزات.

والمكابرون المعاندون يرون العجب من أنبيائهم فلا يزيد قولهم على أن هذا: (سحر مفترى).

ولا شك أن صاحبنا الدكتور القادم من فرنسا قد بلغه من الكتب ثلاثة.. توراة، وإنجيل، وقرآن، وبلغته.. فلم تزده هذه الكتب إلا إغراقًا فى الجدل.. وحتى يهرب من الموقف كله أحاله على شخص مجهول فى الغابات لم ينزل عليه كتاب.. وراح يسألنا.. وما بالكم بهذا الرجل الذى لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب.. ملتمسًا بذلك ثغرة فى العدل الإلهى، أو موهمًا نفسه بأن المسألة كلها عبث.

وهو لذلك يسألنا «ولماذا تتفاوت رحمة الله».. لماذا يشهد الله واحدًا على آياته.. ولا يدرى آخر بتلك الآيات إلّا سمعًا:

ونحن نقول: إنها قد لا تكون رحمة بل نقمة، ألم يقل الله لأتباع المسيح الذين طلبوا نزول مائدة من السماء محذرًا:

**﴿إنِّى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾** ١١٥ - المائدة

ذلك لأنه مع نزول المعجزات يأتى دائمًا تشديد العذاب لمن يكفر.

وطوبى لمن آمن بالسماع بدون أن يرى معجزة.

والويل للذين شاهدوا ولم يؤمنوا.

فالقرآن فى يدك حجة عليك ونذير. ويوم الحساب يصبح نقمة لا رحمة.

وعدم إقامة هذه الحجة البينة على الإسكيمو ساكن القطبين قد يكون إعفاءً وتخفيفًا ورحمة ومغفرة يوم الحساب.. وقد تكون لفتة إلى السماء من هذا

الإسكيمو الجاهل ذات ساعة فى عمره.. عند الله كافية لقبوله مؤمنًا مخلصًا.

أما لماذا يرحم الله واحدًا أكثر مما يرحم آخر فهو أمر يؤسسه الله على علمه بالقلوب.

﴿فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا﴾
١٨ - الفتح.

وعلم الله بنا وبقلوبنا يمتد إلى ما قبل نزولنا فى الأرحام حينما كنا عنده أرواحًا حول عرشه.. فمنا من التف حول نوره.. ومنا من انصرف عنه مستمتعًا بالملكوت، وغافلا عن جمال خالقه، فاستحق الرتبة الدنيا من ذلك اليوم، وسبق عليه القول.. هذا كلام أهل المشاهدة.

وما نراه من تاريخنا القصير فى الدنيا ليس كل شىء.

ومعرفة الحكمة من كل ألم وحرمان أمر لا يعلمه إلا العليم. والذى يسألنى.. لماذا خلق الله الخنزير خنزيرًا.. لا أملك إلا أن أجيبه بأن الله اختار له ثوبًا خنزيريًّا لأن نفسه خنزيرية، وأن خلقه هكذا حق وعدل.

وكل ما نرى حولنا من استحقاقات هى عدل لكن معرفة الحكمة الكلية وإماطة اللثام عن هذا العدل أمر ليس فى مقدور كل واحد.

ولعل لهذا السبب هناك آخرة، ويوم تنصب فيه الموازين وينبئنا العليم بكل ما اختلفنا فيه.

ومع هذا فسوف أريحك بالكلمة الفصل.. فقد قال الله فى كتابه إنه لن يعذب إلا من أنذرهم بالرسل.

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ١٥ - الإسراء.

هل أرحت واسترحت.

ثم دعنى أقل لك يا صاحبى.

إن أعجب ما فى سؤالك أن ظاهره يوهم بالإيمان والإشفاق على الزنجى

المسكين الذي فاته ما فى القرآن من نور ورحمة وهدى.. مع أن حقيقتك هى الكفر بالقرآن وبنوره ورحمته وهداه.. فسؤالك أقرب ما يكون إلى الاستدراج والمخادعة، وفيه مناقضة للنفس هى «اللكاعة» بعينها.. فأنت تحاول أن تقيم علينا حجة هى عندك ليس لها أى حجة.

ألا ترى معى يا صاحبى أن جهاز المنطق عندك فى حاجة إلى إصلاح.

# الجنة والنار

كان صديقنا الدكتور واثقًا من نفسه كل الثقة هذه المرة وهو يلوك الكلمات ببطء ليلقى بالقنبلة - كيف يعذبنا الله وهو الرحمن الرحيم على ذنب محدود فى الزمن بعذاب لا محدود فى الأبد ﴿النار خالدين فيها أبدًا﴾ ومن نحن؟ وماذا نساوى بالنسبة لعظمة الله حتى ينتقم منا هذا الانتقام؟ وما الإنسان إلا ذرة أو هباءة فى الكون وهو بالنسبة لجلال الله أهون من ذلك بكثير.. بل هو اللاشىء بعينه.

ونحن نصحح معلومات الدكتور فنقول:

أولا - أننا لسنا ذرة ولا هباءة فى الكون.. وأن شأننا عند الله ليس هينًا بل عظيمًا.. ألم ينفخ فينا من روحه؟ ألم يسجد لنا ملائكته؟ ألم يعدنا بميراث السموات والأرض ويقول عنا:

﴿ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ ٧٠ - الإسراء

إن فينا إذن من روح الله.

ونحن بالنسبة للكون لسنا ذرة ولا هباءة.. إننا نبدو بالنظر إلى أجسادنا كذرة أو هباءة بالنسبة للكون الفسيح الواسع.

ولكن ألا نحتوى على هذا الكون ونستوعبه بعقلنا وندرك قوانينه وأفلاكه ونرسم لكل كوكب مداره.. ثم ينزل رائد الفضاء على القمر فيكتشف أن كل ما استوعبناه بعقلنا على الأرض كان صحيحا.. وكل مارسمناه كان دقيقًا.

ألا يدل هذا على أننا بالنظر إلى روحنا أكبر من الكون، وأننا نحتوى عليه.. وأن الشاعر كان على حق حينما خاطب الإنسان قائلا:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وأن الإنسان - كما يقول الصوفية - هو الكتاب الجامع والكون صفحاته.

إذن فالإنسان عظيم الشأن كبير الخطر.

وهو من روح الله.

وأعماله تستوجب المحاسبة.

أما عن الذنب المحدود فى الزمان الذى يحاسبنا الله عليه بعذاب لا محدود فى الأبد.. فمغالطة أخرى وقع فيها الدكتور العزيز الواثق من نفسه.

فالله يقول عن هؤلاء المخلدين فى النار حينما يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا غير ما عملوا.. يقول سبحانه:

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ ٢٨ - الأنعام

أى أن ذنبهم ليس ذنبًا محدودًا فى الزمان.. بل هو خصلة ثابتة سوف تتكرر فى كل زمان.. ولو رُدّوا لعادوا إلى ذنبهم، وإنهم لكاذبون.

هى إذن صفة مؤبدة فى النفس وليست سقطة عارضة فى ظرف عارض فى الدنيا.

وهو يقول عنهم فى مكان آخر:

﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحْلِفُون لكم ويحسبون أنهم على شيءٍ ألا إنهم هم الكاذبون﴾ ١٨ - المجادلة

هنا لون آخر من الإصرار والتحدى يصل إلى أنهم يواجهون الله بالكذب والحلف، الكاذب. وهم بين يديه يوم الموقف العظيم، يوم ترفع الحجب وينكشف الغطاء.. وهذا غاية الجبروت والصلف.

ولسنا هنا أمام ذنب محدود فى الزمان.

بل أمام ذنب مستمر فى الأبد وبعد أن يطوى الزمان وكل زمان.. نحن هنا أمام نفس تحمل معها شرًّها الأبدى.

ومن هنا كان تأبيد العذاب لهذه النفس عدلا.

ولهذا تقول عنهم الآية فى صراحة:

﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ١٦٧ - البقرة

ويقول ابن عربى: إن الرحمة بالنسبة لهؤلاء أنهم سوف يتعودون على النار.. وتصبح تلك النار فى الآباد المؤبدة بيئتهم الملائمة.

ولا شك أن هناك مجانسة بين بعض النفوس المجرمة وبين النار.. فبعض تلك النفوس هى فى حقيقتها شعلة حسد وحقد وشهوة وغيرة وغل وضرام من الغضب والنقمة والثورة والمشاعر الإجرامية المحتدمة، وكأنها نار بالفعل.

مثل تلك النفوس لا تستطيع أن تعيش فى سلام.. ولا تستطيع أن تحيا ساعة بدون أن تشعل حولها حربًا، وبدون أن تضرم حولها النيران.. لأن النيران هى بيئتها وطبيعتها.

ومثل تلك النفوس يكون قرارها فى النار هو الحكم العدل، ويكون هذا المصير من قبيل وضع الشيء فى مكانه، فلو أنها أدخلت الجنة لما تذوقتها.

ألم تكن ترفض السلام فى الأرض؟

وينبغى أن نفهم النار والجنة فى الآخرة فهمًا واسع الأفق.. فالنار فى الآخرة ليست شوَّاية. وليس ما يجرى فيها هو الحريق بالمعنى الدنيوى، فالله يقول إن المذنبين فى النار يتكلمون ويتلاعنون، وإن النار فيها شجرة لها ثمر.. هى شجرة الزقوم التى تخرج من أصل الجحيم.. كما أن فيها ماءً حميمًا يشرب منه المعذَّبون.

مثل تلك النار التى فيها شجرة وفيها ماء.. ويتكلم فيها الناس لابد أنها نار غير النار:

**﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أَضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون﴾** ٣٨ - الأعراف

إنهم يتكلمون وهم فى النار وهى نار:

**﴿وقودها الناس والحجارة﴾** ٢٤ - البقرة.

هذه النار إذن هى من قبيل الغيب.. وما ورد عنها إشارات.

ولا يجب أن يفهم من هذا الكلام أننا ننكر العذاب الحسى ونقول بالعذاب المعنوى.. فإن العذاب الحسى صريح لا يجوز الشك فيه ونحن نؤمن بوجوده. وإنما نقول إن تفاصيل هذا العذاب وكيفيته، كما أن كيفية تلك النار وأوصافها التفصيلية، هى غيب مجهول.. فهى على ما يبدو فى الإشارات القرآنية، نار غير النار.. كما أن أجسامنا فى تحملها لتلك النار هى غير الأجسام الترابية الهشة التى لنا الآن..

ونفس الشىء فى الجنة، فهى ليست سوق خضار وبلح ورمان وعنب.. وإنما تلك الأوصاف القرآنية هى مجرد إشارات.. وضرب أمثلة وتقريب إلى الأذهان.

**﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾** ١٥ - محمد

﴿مثل الجنة﴾.. أى أننا نضرب مثلا يقرب فهم الجنة إليك ولكن الحقيقة أن التفاصيل غيب.

﴿فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قُرَّةِ أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾
١٧ - السجدة

﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾ ١٣٣ - آل عمران

فهى لا يمكن أن تكون مجرد حديقة.

﴿وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ ٣٢ - ٣٣ - الواقعة

فهى إذن غير فاكهتنا المقطوعة والممنوعة..

وخمر: ﴿لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون﴾ ١٩ - الواقعة

فهى غير خمرنا التى تصدع الرأس وتنزف العقل.

ويقول القرآن عن أهل الجنة:

﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غِل﴾ ٤٣ - الأعراف

هاهنا نفوس طهرت بطريقة لا نعلمها.

الجنة إذن هى الأخرى غيب، وليس فى هذا الكلام أى إنكار للنعيم الحسى، فنحن نؤمن بأن الجنة نعيم حسى ومعنوى معًا، كما أن النار عذاب حسى ومعنوى، ولكن ما نريد تأكيده أن تفاصيل هذا النعيم أو العذاب وكيفياته غيب، وأن الجنة ليست سوقًا للفاكهة والخضار، ولا النار فرنًا لشوى اللحوم. وأن التعذيب فى الآخرة ليس تجبرًا من الله على عباده، وإنما هو تطهير وتعريف وتقويم ورحمة.

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ ١٤٧ - النساء

فالأصل هو عدم العذاب.

والله لا يعذب العارف المؤمن وإنما ينصب عذابه على الجاحد المنكر الذى فشلت معه كل وسائل الهداية والتعريف والتفهيم.

**﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾**
٢١ - السجدة

سنة الله أن يذيق هؤلاء من العذاب الأصغر فى الدنيا لإيقاظهم من غفلتهم، ولإزعاجهم من هذا الصمم والسبات.. ﴿لعلهم يرجعون﴾..

فإذا لم تفلح كل هذه الوسائل، وظل المنكر على إنكاره لم يبق إلا مواجهته بالعذاب الحق لتعريفه.. والتعريف بالحق هو عين الرحمة.. ولو أن الله تركهم على عماهم وجهلهم وأهملهم لكان فى حقه ظُلمًا.. سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.. فالعرض على النار بالنسبة لهؤلاء الجهال.. عناية.

وكل أفعال الله رحمة..
يرحم الجاهل بالجحيم تأديبًا وتعليمًا.
ويرحم العارف بالجنة فضلا وكرامة.

**﴿عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء﴾** ١٥٦ - الأعراف

فجعل رحمته تسع كل شىء حتى العذاب.

ثم دعونا نسأل الدكتور.. أيكون الله أكثر عدلا فى نظره لو أنه ساوى بين الظالمين والمظلومين وبين السفاحين وضحاياهم، فقدم للكل حفلة شاى فى الآخرة.

وهل العدل فى نظر الدكتور أن يستوى الأبيض والأسود.

وللذين يستبعدون على الله أن يعذب نقول: ألا يعذبنا الله بالفعل فى دنيانا؟.. وماذا تكون الشيخوخة والمرض والسرطان إلا العذاب بعينه؟

ومن خالق الميكروب..؟!.

أليست جميعها إنذارات بأننا أمام إله يمكن أن يعذّب.

# هل الدين أفيون؟

قال لى صاحبى الدكتور وهو يغمز بعينيه:

- وما رأيك فى الذين يقولون إن الدين أفيون، وإنه يخدر الفقراء والمظلومين ليناموا على ظلمهم وفقرهم ويحلموا بالجنة والحور العين.. فى حين يثبت الأغنياء على غناهم، باعتبار أنه حق، وأن الله خلق الناس درجات؟

وما رأيك فى الذين يقولون إن الدين لم ينزل من عند الله وإنما طلع من الأرض من الظروف والدواعى الاجتماعية ليكون سلاحًا لطبقة على طبقة؟

وهو يشير بذلك إلى الماديين وأفكارهم.

قلت:

- ليس أبعد من الخطأ القائل بأن الدين أفيون.. فالدين فى حقيقته أعباء وتكاليف وتبعات، وليس تخففًا وتحللاً، وبالتالى ليس مهربًا من المسئوليات، وليس أفيونًا.

ودينىنا عمل وليس كسلا.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ ١٠٥ - التوبة

ونحن نقول بالتوكل وليس التواكل.

والتوكل يقتضى عندنا العزم واستفراغ الوسع، وبذل غاية الطاقة والحيلة، ثم التسليم بعد ذلك لقضاء الله وحكمه.

﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ ١٥٩ - آل عمران

العزم أولا.

والنبى يقول لمن يريد أن يترك ناقته سائبة توكُّلًا على حفظ الله.. «اعقلها وتوكل».. أى ابذل وسعك أولا فثبتها فى عقالها ثم توكل.

والدين صحو وانتباه ويقظة، ومحاسبة للنفس، ومراقبة للضمير فى كل فعل وفى كل كلمة وكل خاطر، وليس هذا حال آكل الأفيون.

إنما آكل الأفيون الحقيقى هو المادى الذى ينكر الدين هربًا من تبعاته ومسئولياته، ويتصور أن لحظته ملكه، وأنه لا حسيب ولا رقيب ولا بعث بعد الموت، فيفعل ما يخطر على باله، وأين هذا الرجل من المتدين المسلم الذى يعتبر نفسه مسئولا عن سابع جار.. وإذا جاع فرد فى أمته أو ضربت دابة عاتب نفسه بأنه لم يقم بواجب الدين فى عنقه.

وليس صحيحًا أن ديننا خرج من الأرض، من الظروف والدواعى الاجتماعية، ليكون سلاحًا لطبقة على طبقة وتثبيتًا لِغنى الأغنياء وفقر الفقراء.

والعكس هو الصحيح.. فالإسلام جاء ثورة على الأغنياء والكانزين المال والمستغلين والظالمين. فأمر صراحة بألّا يكون المال دُولة بين الأغنياء يحتكرونه ويتداولونه بينهم، وإنما يكون حقًّا للكل.

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾. ٣٤ - التوبة

والإنفاق يبدأ من زكاة إجبارية ٢,٥ فى المائة.. ثم يتصاعد اختياريًّا إلى كل ما فى الجيب وكل ما فى اليد، فلا تبقى لنفسك إلا خبزك كفافك.

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ ٢١٩ - البقرة

والعفو هو كل مازاد على الكفاف والحاجة.

وبهذا جمع الإسلام بين التكليف الجبرى القانونى والتكليف الاختيارى القائم على الضمير، وهذا أكرم للإنسان من نزع أملاكه بالقهر والمصادرة.

ووصل الإنفاق إلى ما فوق التسعين فى المائة بدون إرهاق.

ولم يأت الإسلام ليثبت ظلم الظالمين، بل جاء ثورة صريحة على كل الظالمين، وجاء سيفًا وحربًا على رقاب الطواغيت والمستبدين.

أما التهمة التى يسوقها الماديون بأن الدين رجعى وطبقى بدليل الآيات:

﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ ٧١ - النحل

﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ ٣٢ - الزخرف

فنحن نرد بأن هذه الآيات تنطبق على لندن وباريس وبرلين وموسكو بمثل ما تنطبق على القاهرة ودمشق وجدة، وإذا مشينا فى شوارع موسكو فسوف نجد من يسير على رجليه. ومن يركب بسكليت. ومن يركب عربة موسكوفتش. ومن يركب عربة زيم فاخرة.. وماذا يكون هذا إلا التفاضل فى الرزق بعينه والدرجات والرتب الاقتصادية.

والتفاوت بين الناس حقيقة جوهرية.

ولم تستطع الشيوعية أن تلغى التفاوت.

ولم يقل حتى غلاة المادية والفوضوية بالمساواة.

والمساواة غير ممكنة فكيف نساوى بين غير متساويين.

الناس يولدون من لحظة الميلاد غير متساوين فى الذكاء والقوة والجمال والمواهب.. يولدون على درجات فى كل شىء.

وأقصى ما طمعت فيه المذاهب الاقتصادية هى المساواة فى الفرص وليس المساواة بين الناس.. أن يلقى كل واحد نفس الفرصة فى التعليم والعلاج والحد الأدنى للمعيشة.. وهو نفس ما تحض عليه الأديان.. أما إلغاء الدرجات وإلغاء التفاوت فهو الظلم بعينه والأمر الذى ينافى الطبيعة. والطبيعة تقوم كلها على أساس التفاضل والتفاوت والتنوع فى ثمار الأرض وفى البهائم وفى الناس.

فى القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة، وجيزة ٧، وسكلاريدس وفولى جود فير.. فى البلح نجد الزغلول والسمانى والحيانى.. وفى العنب نجد البناتى والفيومى والأزمرلى.

وفى الحيوان والإنسان نجد الرتب والدرجات والتفاوت أكثر.

هذا هو قانون الوجود كله.. التفاضل.

وحكمة هذا القانون واضحة.. فلو كان جميع الناس يولدون بخلقة واحدة وقالب واحد ونسخة واحدة، لما كان هناك داع لميلادهم أصلا.. وكان يكفى أن نأتى بنسخة واحدة فتغنى عن الكل.. وكذلك الحال فى كل شىء.. ولانتهى الأمر إلى فقر الطبيعة وإفلاسها.

وإنما غنى الطبيعة وخصبها لا يظهر إلا بالتنويع فى ثمارها وغلاتها والتفاوت فى ألوانها وأصنافها.

ومع ذلك فالدين لم يسكت على هذا التفاوت بين الأغنياء والفقراء، بل أمر بتصحيح الأوضاع، وجعل للفقير نصيبًا فى مال الغنى.. وقال إن هذا التفاوت فتنة وامتحان.

﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ ٢٠ - الفرقان

سوف نرى ماذا يفعل القوى بقوته. هل ينجد بها الضعفاء أو يضرب ويقتل ويكون جبارًا فى الأرض؟.. وسوف نرى ماذا يفعل الغنى بغناه.. هل

يطغى ويسرف ؟.. أو يعطف ويحسن ؟.. وسوف نرى ماذا يفعل الفقير بفقره.. هل يحسد ويحقد ويسرق ويختلس.. أو يعمل ويكد ويجتهد ليرفع مستوى معيشته بالشرع والعدل.

وقد أمر الدين بالعدل وبتصحيح الأوضاع وبالمساواة بين الفرص.. وهدد بعذاب الآخرة، وقال بأن الآخرة ستكون أيضًا درجات أكثر تفاوتًا لتصحح ما لم يجر تصحيحه فى الأرض.

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ ٢١ - الإسراء.

وللذين يتهمون الإسلام بالرجعية السياسية نقول إن الإسلام أتى بأكثر الشرائع تقدمية فى نظم الحكم.

احترام الفرد فى الإسلام بلغ الذروة.. وسبق ميثاق حقوق الإنسان وتفوق عليه.. فماذا يساوى الفرد الواحد فى الإسلام؟ إنه يساوى الإنسانية كلها.

﴿من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا﴾ ٣٢ - المائدة

لا تغنى المنجزات ولا الإصلاحات المادية ولا التعمير ولا السدود ولا المصانع.. إذا قتل الحاكم فردًا واحدًا ظلمًا فى سبيل هذا الإصلاح. فإنه يكون قد قتل الناس جميعًا.

ذروة فى احترام الفرد لم يصل إليها مذهب سياسى قديم أو جديد.. فالفرد فى الإسلام له قيمة مطلقة فى حين أن قيمته نسبية فى كل المذاهب السياسية.. والفرد فى الإسلام آمن فى بيته.. وفى أسراره «لا تجسس ولا غيبة» آمن فى ماله ورزقه وملكيته وحريته.

كل شىء حتى التحية، حتى إفساح المجلس، حتى الكلمة الطيبة لها مكان فى القرآن.

وقد نهى القرآن عن التجبر والطغيان والانفراد بالحكم وقال الله للنبى ﷺ «وهو مَنْ هو فى كماله وصلاحياته».

﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ ٤٥ - ق

﴿فذكِّر إنّما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر﴾ ٢١ - ٢٢ - الغاشية

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ١٠ - الحجرات

ونهى عن عبادة الحاكم وتأليه العظيم:

﴿ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله﴾ ٦٤ - آل عمران

﴿وقضى ربك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه﴾ ٢٣ - الإسراء

ونهى عن الغوغائية وتملق الدهماء والسوقة والجرى وراء الأغلبية المضللة، وقال:

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ٢١ - يوسف

﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ ٦٣ - العنكبوت

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ ٥٩ - غافر

﴿إنّ يتبعون إلّا الظن وإن هم إلّا يخرصون﴾ ١١٦ - الأنعام

﴿إنْ هم إلّا كالأنعام بل هم أضل﴾ ٤٤ - الفرقان

ونهى عن العنصرية والعرقية:

﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ١٣ - الحجرات

﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ ١٨٩ - الأعراف

وبالمعنى العلمى كان الإسلام تركيبا جدليًا جامعًا بين مادية اليهودية والروحانية المسيحية، وبين العدل الصارم الجاف الذى يقول: السن بالسن

والعين بالعين وبين المحبة والتسامح المتطرف الذى يقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.

وجاء القرآن وسطًا بين التوراة التى حرفت حتى أصبحت كتابًا ماديًّا ليس فيه حرف واحد عن الآخرة. وبين الإنجيل الذى مال إلى رهبانية تامة. ونادى القرآن بناموس الرحمة الجامع بين العدل والمحبة، فقال بشرعية الدفاع عن النفس، ولكنه فضل العفو والصفح والمغفرة.

﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ ٤٣ – الشورى

وإذا كانت الرأسمالية أطلقت للفرد حرية الكسب إلى درجة استغلال الآخرين، وإذا كانت الشيوعية سحقت هذه الحرية تماما – فإن الإسلام قدم الحل الوسط.

﴿وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾
٣٢ – النساء

الفرد حر فى الكسب، ولكن ليس له أن يأخذ ثمرة أرباحه كلها.. وإنما له فيها نصيب.. وللفقير نصيب يؤخذ زكاة وإنفاقًا من ٢,٥٪ جبرًا إلى ٩٠٪ وأكثر اختيارًا.. وهذا النصيب ليس تصدقًا وتفضلًا، وإنما هو حق الله فى الربح.. وبهذه المعادلة الجميلة حفظ الإسلام للفرد حريته وللفقير حقه.

ولهذا أصاب القرآن كل الصواب حينما خاطب أمة الإسلام قائلا:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ ١٤٣ – البقرة

فقد اختار الإسلام الوسط العدل فى كل شىء وهو ليس الوسط الحسابى وإنما الوسط الجدلى، أو هو التركيب الذى يجمع النقيضين (اليمين واليسار) ويتجاوزهما ويزيد عليهما.. ولذلك ليس فى الإسلام يمين ويسار، وإنما فيه «صراط» الاعتدال الوسط الذى نسميه الصراط المستقيم، من خرج عنه باليمين أو اليسار فقد انحرف.

ولم يقيدنا القرآن بدستور سياسى محدد أو منهج مفصل للحكم، لعلم الله بأن الظروف تتغير بما يقتضى الاجتهاد فى وضع دساتير متغيرة فى الأزمنة المتغيرة، وحتى يكون الباب مفتوحًا أمام المسلمين للأخذ والعطاء من المعارف المتاحة فى كل عصر بدون انغلاق على دستور بعينه.

ولهذا اكتفى القرآن بهذه التوصيات السياسية العامة السالفة كخصائص للحكم الأمثل.. ولم يكبلنا بنظرية، وهذا سر من أسرار إعجازه وتفوقه، وليس فقرًا ولا نقصًا فيه.

وتلك لمسة أخرى من تقدمية القرآن التى سبقت كل التقدميات.

ونرد على القائلين بأن الدين جمود وتحجر.. بأن الإسلام لم يكن قط دين تجمد وتحجر، وإنما كان دائمًا وأبدًا دين نظر وفكر وتطوير وتغيير بدليل آياته الصريحة:

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ ٢٠ - العنكبوت

﴿فلينظر الإنسان مِمَّ خلق. خُلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب﴾ ٥ - ٧ - الطارق

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رُفعت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الأرض كيف سُطحت﴾ ١٧ - ٢٠ - الغاشية

أوامر صريحة بالنظر فى خلق الإنسان وفى خلق الحيوان، وفى خلق الجبال، وفى طبقات الأرض وفى السماء وأفلاكها.. وهى نظرات تضم كل ما نعنيه الآن بعلم الجيولوچيا والفلك والتشريح والفسيولوچيا والبيولوچيا وعلم الأجنة.

أوامر صريحة بالسير فى الأرض، وجمع الشواهد واستنباط الأحكام والقوانين، ومعرفة كيف بدأ الخلق.. وهو ما نعرفه الآن بعلوم التطور.

ولا خوف من الخطأ.

فالإسلام يكافئ الذى يجتهد ويخطئ بأجر، والذى يجتهد ويصيب بأجرين.

وليس صحيحًا ما يقال من أننا تخلفنا بالدين وتقدم الغرب بالإلحاد.. والحق أننا تخلفنا حينما هجرنا أوامر ديننا. وحينما كان المسلمون يأتمرون بهذه الآيات حقًّا، كان هناك تقدم، وكانت هناك دولة من المحيط إلى الخليج وعلماء مثل ابن سينا فى الطب، وابن رشد فى الفلسفة، وابن الهيثم فى الرياضيات، وابن النفيس فى التشريح وجابر بن حيان فى الكيمياء.

وكانت الدنيا تأخذ عنا علومنا.. وما زالت مجمعات النجوم وأبراجها تحتفظ إلى الآن بأسمائها العربية فى المعاجم الأوربية.. ومازالوا يسمون جهاز التقطير بالفرنسية imbique ومنه الفعل من كلمة أمبيق العربية imbiquer.

ولم يتقدم الغرب بالإلحاد بل بالعلم.

وإنما وقع الخلط مما حدث فى العصور الوسطى من طغيان الكنيسة ومحاكم التفتيش وحجرها على العلم والعلماء وما حدث من سجن غاليليو وحرق جيوردانو برونو.

حينما حكمت الكنيسة وانحرف بها البابوات عن أهدافها النبيلة فكانت عنصر تأخر.. فتصور النقاد السطحيون أن هذا ينسحب أيضًا على الإسلام وهو خطأ.. فالإسلام ليس فيه بابوية ولا كهنوت.. والله لم يقم بينه وبين المسلمين أوصياء ولا وسطاء.

وحينما حكم الإسلام بالفعل كان عنصر تقدم كما شرحنا وكما يقول التاريخ مكذبًا هذه المزاعم السطحية.

وآيات القرآن الصريحة تحض على العلم وتأمر بالعلم ولا تقيم بين العلم والدين أى تناقض:

﴿وقل ربِّ زدنى علمًا﴾ ١١٤ – طه

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ٩ – الزمر

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو وَالملائكة وأولو العلم﴾ ١٨ - آل عمران

جعل الله الملائكة وأولى العلم فى الآية مقترنين بشرف اسمه.

وأول آية فى القرآن وأول كلمة كانت «اقرأ» والعلماء فى القرآن موعودون بأرفع الدرجات:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾
١١ - المجادلة

وتتكرر كلمة العلم ومشتقاته فى القرآن نحو ثمانمائة وخمسين مرة.

فكيف يتكلم بعد هذا متكلم عن تناقض بين الدين والعلم أو حجر من الدين على العلم.

والنظر فى الدين وتطوير فهمه مطلوب، وتاريخ الإسلام كله حركات إحياء وتطوير.. والقرآن برىء من تهمة التحجير على الناس، وكل شىء فى ديننا يقبل التطوير، ما عدا جوهر العقيدة وصلب الشريعة، لأن الله واحد ولن يتطور إلى اثنين أو ثلاثة.. هذا أمر مطلق.. وكذلك الشر شر والخير خير.. لن يصبح القتل فضيلة ولا السرقة حسنة ولا الكذب حلية يتحلى بها الصالحون.

وفيما عدا ذلك فالدين مفتوح للفكر والاجتهاد والإضافة والتطوير.

وجوهر الإسلام عقلانى منطقى يقبل الجدل والحوار ويحض على استخدام العقل والمنطق.

وفى أكثر من مكان وفى أكثر من صفحة فى القرآن نعثر على التساؤل.. ﴿أفلا يعقلون﴾.. ﴿أفلا يفقهون﴾.

وأهل الدين عندنا هم «أولو الألباب».

﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ ٢٢ - الأنفال

﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ ٤٦ - الحج

احترام العقل فى لب وصميم الديانة.

والإيجابية عصبها والثورة روحها.

لم يكن الإسلام قط خانعًا ولا سلبيًّا.

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ١٩٠ - البقرة

﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص﴾ ٤ - الصف

والجهاد بالنفس والمال والأولاد.. والقتال والثبات وعدم النكوص على الأعقاب. ومواجهة اليأس والمصابرة والمرابطة فى صلب ديننا.

فكيف يمكن لدين بهذه المرونة والعقلانية والعلمية والإيجابية والثورة أن يُتَّهم بالتحجر والجمود إلا من صديق عزيز مثل الدكتور القادم من فرنسا، لا يعرف من أوليات دينه شيئًا ولم يقرأ فى قرآنه حرفًا.

# وحكاية الإسلام مع المرأة؟

قال صديقى الدكتور:

- ألا توافقنى على أن الإسلام كان موقفه رجعيًا من المرأة؟

وبدأ يعد على أصابعه..

- حكاية تعدد الزوجات، وبقاء المرأة فى البيت، والحجاب، والطلاق فى يد الرجل، والضرب، والهجر فى المضاجع، وحكاية ما ملكت أيمانكم، وحكاية الرجال قوامون على النساء، ونصيب الرجل المضاعف فى الميراث.

قلت له وأنا أستجمع نفسى:

التهم هذه المرة كثيرة، والكلام فيها يطول.. ولنبدأ من البداية، من قبل الإسلام، وأظنك تعرف تمامًا أن الإسلام جاء على جاهلية. والبنت التى تولد كان نصيبها الوأد والدفن فى الرمال، والرجل يتزوج العشرة والعشرين، ويكره جواريه على البغاء ويقبض الثمن.. فكان ما جاء به الإسلام من إباحة الزواج بأربع تقييدًا وليس تعديدًا.. وكان إنقاذًا للمرأة من العار والموت والاستعباد والمذلة.

وهل المرأة الآن فى أوربا أسعد حالا فى الانحلال الشائع هناك، وتعدد العشيقات الذى أصبح واقع الأمر فى أغلب الزيجات..

أليس أكرم للمرأة أن تكون زوجة ثانية لمن تحب.. لها كافة حقوق الزوجة واحترامها من أن تكون عشيقة فى السر تختلس المتعة من وراء الجدران.

ومع ذلك فالإسلام جعل من التعدد إباحة شبه معطلة، وذلك بأن شرط شرطًا صعب التحقيق، وهو العدل بين النساء.

﴿فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة﴾ ٣ - النساء

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ ١٢٩ - النساء

فنفى قدرة العدل حتى عن الحريص، فلم يبق إلّا من هو أكثر من حريص، كالأنبياء والأولياء ومن فى دربهم.

أما البقاء فى البيوت فهو أمر وارد لزوجات النبى باعتبارهن مُثلا عليا.

﴿وقرن فى بيوتكن﴾ ٣٣ - الأحزاب

وهى إشارة إلى أن الوضع الأمثل للمرأة هى أن تكون أمًّا وربة بيت تفرغ لبيتها ولأولادها.

ويمكن أن نتصور حالة أمة نساؤها فى الشوارع والمكاتب، وأطفالها فى دور الحضانة والملاجئ.. أتكون أحسن حالا؟ أم أمة النساء فيها أمهات وربات بيوت، والأطفال فيها يتربون فى حضانة أمهاتهم، والأسرة فيها متكاملة الخدمات؟

الرد واضح.

ومع ذلك فالإسلام لم يمنع المقتضيات التى تدعو إلى خروج المرأة وعملها.. وقد كانت فى الإسلام فقيهات وشاعرات.. وكانت النساء يخرجن فى الحروب.. ويخرجن للعلم.

إنما توجهت الآية إلى نساء النبى كمُثُل عليا، وبين المثال والممكن والواقع درجات متعددة.

وقد خرجت نساء النبى مع النبى ﷺ فى غزواته.

وينسحب على هذا الخروج لمعونة الزوج فى كفاح شريف فهو أمر لا غبار عليه.

أما الحجاب فهو لصالح المرأة.

وقد أباح الإسلام كشف الوجه واليدين، وأمر بستر ما عدا ذلك، ومعلوم أن الممنوع مرغوب، وأن ستر مواطن الفتنة يزيدها جاذبية.

وبين القبائل البدائية وبسبب العرى الكامل يفتر الشوق تمامًا وينتهى الفضول، ونرى الرجل لا يخالط زوجته إلّا مرة فى الشهر وإذا حملت قاطعها سنتين.

وعلى الشواطئ فى الصيف حينما يتراكم اللحم العارى المباح للعيون يفقد الجسم العريان جاذبيته وطرافته وفتنته، ويصبح أمرًا عاديًّا لا يثير الفضول.

ولا شك أنه من صالح المرأة أن تكون مرغوبة أكثر، وألا تتحول إلى شىء عادى لا يثير.

أما حق الرجل فى الطلاق فيقابله حق المرأة أيضًا فى الخلع على الطرف الآخر، فيمكن للمرأة أن تطلب الطلاق بالمحكمة وتحصل عليه إذا أبدت المبررات الكافية.

ويمكن للمرأة أن تشترط الاحتفاظ بعصمتها عند العقد.. وبذلك يكون لها حق الرجل فى الطلاق.

والإسلام يعطى الزوجة حقوقًا لا تحصل عليها الزوجة فى أوربا، فالزوجة عندنا تأخذ مهرًا.. وعندهم تدفع دوطة.. والزوجة عندنا لها حق التصرف فى أملاكها.. وعندهم تفقد هذا الحق بمجرد الزواج، ويصبح الزوج هو القيم على أملاكها.

أما الضرب والهجر فى المضاجع فهو معاملة المرأة الناشز فقط.. أما المرأة السوية فلها عند الرجل المودة والرحمة.

والضرب والهجر فى المضاجع من معجزات القرآن فى فهم النشوز.. وهو يتفق مع أحدث ما وصل إليه علم النفس العصرى فى فهم المسلك المرضى للمرأة.

وكما نعلم يقسم علم النفس هذا المسلك المرضى إلى نوعين:

النوع الأول هو: «المسلك الخضوعى»: وهو مايسمى فى الإصطلاح العلمى «ماسوشزم» masochism وهو تلك الحالة المرضية التى تلتذ فيها المرأة بأن تضرب وتعذب وتكون الطرف الخاضع.

والنوع الثانى هو: «المسلك التحكمى»: وهو ما يسمى فى الاصطلاح العلمى «سادزم» sadism وهو تلك الحالة المرضية التى تلتذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط وتوقع الأذى بالغير. ومثل هذه المرأة لا حل لها سوى انتزاع شوكتها وكسر سلاحها الذى تتحكم به، وسلاح المرأة أنوثتها، وذلك بهجرها فى المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به.. أما المرأة الأخرى التى لا تجد لذتها إلّا فى الخضوع والضرب فإن الضرب لها علاج.. ومن هنا كانت كلمة القرآن:

﴿واهجُروهن فى المضاجع واضربوهن﴾ ٣٤ - النساء

إعجازا علميًّا وتلخيصًا فى كلمتين فيهما كل ما أتى به علم النفس فى مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها.

أما حكاية (ما ملكت أيمانكم) التى أشار إليها السائل فإنها تجرنا إلى قضية الرق فى الإسلام.. واتهام المستشرقين للإسلام بأنه دعوة إلى الرق.. والحقيقة أن الإسلام لم يدع إلى الرق.. بل كان الدين الوحيد الذى دعا إلى تصفية الرق.

ولو قرأنا الإنجيل، وما قاله بولس الرسول فى رسائله إلى أهل أفسس، وما أوصى به العبيد لوجدناه يدعو العبيد دعوة صريحة إلى طاعة سادتهم كما

الرب: «أيها العبيد.. أطيعوا سادتكم بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما الرب».

ولم يأمر الإنجيل بتصفية الرق كنظام، وإنما أقصى ما طالب به كان الأمر بالمحبة وحسن المعاملة بين العبيد وسادتهم.

وفى التوراة المتداولة كان نصيب الأحرار أسوأ من نصيب العبيد.. ومن وصايا التوراة أن البلدة التى تستسلم بلا حرب يكون حظ أهلها أن يساقوا رقيقًا وأسارى، والتى تدافع عن نفسها بالسيف ثم تستسلم يعرض أهلها على السلاح ويقتل شيوخها وشبابها ونساؤها وأطفالها ويذبحوا تذبيحًا.

كان الاسترقاق إذن حقيقة ثابتة قبل مجىء الإسلام وكانت الأديان السابقة توصى بولاء العبد لسيده.

فنزل القرآن ليكون أول كتاب سماوى يتكلم عن فك الرقاب وعتق الرقاب.

ولم يحرم القرآن الرق بالنص الصريح.. ولم يأمر بتسريح الرقيق.. لأن تسريحهم فجأة وبأمر قرآنى فى ذلك الوقت وهم مئات الآلاف بدون صناعة، وبدون عمل اجتماعى، وبدون توظيف يستوعبهم، كان معناه كارثة اجتماعية، وكان معناه خروج مئات الألوف من الشحاذين فى الطرقات يستجدون الناس ويمارسون السرقة والدعارة ليجدوا اللقمة، وهو أمر أسوأ من الرق، فكان الحل القرآنى هو قفل باب الرق ثم تصفية الموجود منه.. وكان مصدر الرق فى ذلك العصر هو استرقاق الأسرى فى الحروب، فأمر القرآن بأن يطلق الأسير أو تؤخذ فيه فدية، وبأن لا يؤخذ الأسرى أرقاء.

﴿فإما منًّا بعد. وإمّا فداء﴾ ٤ - محمد

فإما أن تمن على الأسير فتطلقه لوجه الله.. وإما أن تأخذ فيه فدية. أما الرقيق الموجود بالفعل فتكون تصفيته بالتدريج، وذلك بجعل فك

الرقاب وعتق الرقاب كفّارة للذنوب صغيرها وكبيرها، وبهذا ينتهى الرق بالتدريج.

وإلى أن تأتى تلك النهاية فماذا تكون معاملة السيد لما ملكت يمينه.. أباح له الإسلام أن يعاشرها كزوجته.

وهذه حكاية (ما ملكت أيمانكم) التى أشار إليها السائل، ولا شك أن معاشرة المرأة الرقيق كالزوجة كان فى تلك الأيام تكريمًا لا إهانة.

وينبغى ألا ننسى موقف الإسلام من العبد الرقيق وكيف جعل منه أخًا بعد أن كان عبدًا يداس بالقدم.

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ١٠ - الحجرات

﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ ١٨٩ - الأعراف.

﴿ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله﴾ ٦٤ - آل عمران

وقد ضرب محمد ﷺ المثل حينما تبنى عبدًا رقيقًا، هو زيد بن حارثة، فأعتقه وجعل منه ابنه.. ثم زوجه من الحرة سليلة البيت الشريف زينب بنت جحش.

كل هذا ليكسر هذه العنجهية والعصبية.. وليجعل من تحرير العبيد موقفًا يقتدى به.. وليقول بالفعل وبالمثال إن رسالته هى عتق الرقاب.

أما أن الرجال قوامون على النساء فهى حقيقة فى كل مكان فى البلاد الإسلامية. وفى البلاد المسيحية. وفى البلاد التى لا تعرف إلهًا ولا دينًا.

فى موسكو الملحدة الحكام رجال من أيام لينين وستالين وخرشوف وبولجانين إلى اليوم، وفى فرنسا الحكام رجال، وفى لندن الحكام رجال، وفى كل مكان من الأرض الرجال هم الذين يحكمون ويشرعون ويخترعون، وجميع الأنبياء كانوا رجالا، وجميع الفلاسفة كانوا رجالا، حتى الملحنين «مع أن التلحين صنعة خيال لا يحتاج إلى عضلات» رجال، وكما يقول العقاد ساخرًا:

حتى صنعة الطهى والحياكة والموضة وهى تخصصات نسائية تفوق فيها الرجال ثم انفردوا بها.

وهى ظواهر لا دخل للشريعة الإسلامية فيها.. فهى ظواهر عامة فى كل بقاع الدنيا، حيث لا تحكم شريعة إسلامية ولا يحكم قرآن.

إنما هى حقائق.. إن الرجل قوّام على المرأة بحكم الطبيعة واللياقة والحاكمية التى خصه بها الخالق.

وإذا ظهرت وزيرة أو زعيمة أو حاكمة فإنها تكون الطرافة التى تروى أخبارها والاستثناء الذى يؤكد القاعدة.

والإسلام لم يفعل أكثر من أنه سجل هذه القاعدة وهذا يفسر لنا بعد ذلك لماذا أعطى القرآن الرجل ضعف النصيب فى الميراث.. لأنه هو الذى ينفق، ولأنه هو الذى يعول.. ولأنه هو الذى يعمل.

كان موقف الإسلام من المرأة هو العدل.

وكانت سيرة النبى مع نسائه هى المحبة والحدب والحنان.. ألم يؤثر عنه قوله ﷺ:

«حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب وجُعلت قرة عينى فى الصلاة».

فذكر النساء مع الطيب والعطر والصلاة وهذا غاية الإعزاز وكان آخر ما قاله فى آخر خطبة له قبل موته هو التوصية بالنساء.

وإذا كان الله قد اختار المرأة للبيت والرجل للشارع فلأنه عهد إلى الرجل أمانة التعمير والبناء والإنشاء فى حين عهد إلى المرأة أمانة أكبر وأعظم هى تنشئة الإنسان نفسه.

وإنه من الإعظام لشأن المرأة أن تؤتمن على هذه الأمانة. فهل ظلم الإسلام النساء؟!!

# الروح

قال صديقى الدكتور وهو يعلم هذه المرة أن الإشكال سيكون عسيرًا:

- ما دليلك على أن الإنسان له روح، وأنه يبعث بعد موت، وأنه ليس مجرد الجسد الذى ينتهى إلى تراب.. وماذا يقول دينكم فى تحضير الأرواح؟

قلت بعد برهة تفكير:

- لا شك أن السؤال اليوم صعب، والكلام عن الروح ضرب فى تيه، والحقائق الموجودة قليلة ولكنها مع ذلك فى صفنا نحن وليست فى صفكم.

ومضت برهة أغرقت فيها فى التفكير ثم قلت مردفًا:

- فكر معى قليلا.. إن أول المؤشرات التى تساعدنا على التدليل على وجود الروح أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة.

الإنسان له طبيعتان:

طبيعة خارجية ظاهرة مشهودة هى جسده. تتصف بكل صفات المادة، فهى قابلة للوزن والقياس، متحيزة فى المكان، متزمنة بالزمان. دائمة التغير

والحركة والصيرورة من حال إلى حال، ومن لحظة إلى لحظة فالجسد تتداول عليه الأحوال من صحة إلى مرض، إلى سمنة، إلى هزال إلى تورد، إلى شحوب. إلى نشاط، إلى كسل، إلى نوم، إلى يقظة، إلى جوع، إلى شبع، وملحق بهذه الطبيعة الجسدية شريط من الانفعالات والعواطف والغرائز والمخاوف لا يكف لحظة عن الجريان فى الدماغ.

ولأن هذه الطبيعة والانفعالات الملحقة بها تتصف بخواص المادة نقول إن جسد الإنسان ونفسه الحيوانية هما من المادة.

ولكن هناك طبيعة أخرى مخالفة تمامًا للأولى ومغايرة لها فى داخل الإنسان.

طبيعة من نوع آخر تتصف بالسكون واللازمان واللامكان والديمومة.. هى العقل بمعاييره الثابتة وأقيسته ومقولاته.. والضمير بأحكامه، والحس الجمالى والـ «أنا» التى تحمل كل تلك الصفات «من عقل وضمير وحس جمالى وحس أخلاقى».

والـ «أنا» غير الجسد تمامًا وغير النفس الحيوانية التى تلتهب بالجوع والشبق.

الـ «أنا» هى الذات العميقة المطلقة، وعن طريق هذه الذات العميقة يشعر الإنسان بذلك الشعور العميق بالحضور والكينونة والشخوص والمثول فى العالم.. وبأنه هنا وبأنه كان دائمًا هنا.. وهو شعور ثابت ممتد لا يطرأ عليه التغير، لا يسمن ولا يهزل ولا يمرض، ولا يتصف بالزمان.. وليس فيه ماضٍ وحاضر ومستقبل.. إنما هو «آن» مستمر لا ينصرم كما ينصرم الماضى.. وإنما يتمثل فى شعور بالدوام.. بالديمومة.

هنا نوع آخر من الوجود لا يتصف بصفات المادة، فلا هو يطرأ عليه التغير، ولا هو يتحيز فى المكان أو يتزمن بالزمان، ولا هو يقبل الوزن والقياس.. وبالعكس نجد أن هذا الوجود هو الثابت الذى نقيس به

المتغيرات، والمطلق الذى نعرف به كل ما هو نسبى فى عالم المادة.

وأصدق ما نصف به هذا الوجود أنه روحى، وأن طبيعته روحية.

ولنا أن نسأل بعد ذلك.

أى الطبيعتين هى الإنسان حقًّا؟

هل الإنسان بالحقيقة هو جسده أو روحه؟

ولنعرف الجواب علينا أن نبحث أى الطبيعتين هى الحاكمة على الأخرى.

يقول لنا الماديون: إن الإنسان هو جسده، وإن الجسد هو الحاكم، وإن كل ما ذكرت من عقل ومنطق وحس جمالى وحس خلاقى وضمير، وهذه «التخريفة» التى اسمها «الذات» أو الـ «أنا» كل هذا ملحق بالجسد، ثانوى عليه، تابع له، يأتمر بأمره ويقوم على خدمته، ويتولى إشباع شهواته وأهوائه.

هذا كلام إخواننا الماديين، وهوخطأ، فالحقيقة أن الجسد تابع وليس متبوعًا، مأمور وليس آمرًا، ألا يجوع الجسد فنرفض إمداده بالطعام لأننا قررنا أن نصوم هذا اليوم لله.. ألا يتحرك بشهوة فنزجره؟!.

ألا نصحو فى الصباح فيبدأ الجسد تلقائيًّا فى تنفيذ خطة عمل وضعها العقل وصنف بنودها بندًا بندًا.. من ساعة إلى ساعة.. من التابع هنا ومن المتبوع؟

ولحظة التضحية بالنفس حينما يضع الفدائى حزام الديناميت حول جسده ويتقدم ليحطم الدبابة ومن فيها.. أين جسده هنا؟.. أين المصلحة المادية التى يحققها بموته..؟ ومن الذى يأمر الآخر..؟ إن الروح تقرر إعدام الجسد فى لحظة مثالية تمامًا لا يمكن أن يفسرها مذهب مادى بأى مكسب مادى، والجسد لا يستطيع أن يقاوم هذا الأمر، ولا يملك أى قوة لمواجهته، لا يملك إلا أن يتلاشى تمامًا.. وهنا يظهر أى الوجودين هو الأعلى.. وأى الطبيعتين هى الإنسان حقًّا.

وعندنا اليوم أكثر من دليل على أن الجسد هو الوجود الثانوى.. ما يجرى الآن من حوادث البتر والاستبدال وزرع الأعضاء.. وما نقرؤه عن القلب الإلكترونى والكلية الصناعية وبنك الدم. وبنك العيون، ومخازن الأكسسوار البشرى، حيث يجرى تركيب السيقان والأذرع والقلوب ولن تكون نكتة أن يدخل العريس على عروسه سنة ٢٠٠٠ فيجدها تخلع طقم الأسنان والباروكة والنهود الكاوتشوك والعين الصناعية والساق الخشبية فلا يبقى منها إلا هيكل مثل شاسيه السيارة بعد نزع الجلد والكراسى والأبواب.

إلى هذه الدرجة يجرى فك الجسم وتركيبه واستبداله دون أن يحدث شىء للشخصية لأن هذه الذراع أو تلك الساق أو ذلك الشعر أو العين أو النهد كل هذه الأشياء ليست هى الإنسان.. فها هى ذى تنقل وتستبدل، وتوضع مكانها بطاريات ومسامير وقطع من الألومنيوم، بدون أن يحدث شىء.. فالإنسان ليس هذه الأعضاء وإنما هو الروح الجالسة على عجلة القيادة لتدير هذه الماكينة التى اسمها الجسد.

إنها الإدارة التى يمثلها مجلس إدارة من خلايا المخ.. ولكنها ليست المخ.

فالمخ مثله مثل خلايا الجسد يصدع بالأوامر التى تصدر إليه ويعبر عنها، ولكنه فى النهاية ليس أكثر من قفاز لها.. قفاز تلبسه هذه اليد الخفية التى اسمها الروح أو النفس وتتصرف به فى العالم المادى.

نفهم من هذه الشواهد كلها أن الإنسان له طبيعتان.. طبيعة جوهرية حاكمة هى روحه أو نفسه، وطبيعة ثانوية زائلة هى جسده.

وما يحدث بالموت أن الطبيعة الزائلة تلتحق بالزوال، والطبيعة الخالدة تلتحق بالخلود، فيلتحق الجسد بالتراب، وتلتحق الروح أو النفس بعالمها الباقى.

ولعشاق الفلسفة نقدم دليلا آخر على وجود الروح من الخاصية التى تتميز بها الحركة.

فالحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها.

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى نفس الفلك، وإنما لابد من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها.. ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى «أسانسير» متحرك لا تستطيع أن تعرف أهو واقف أم متحرك لأنك أصبحت قطعة واحدة معه فى حركته.. لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب «الأسانسير» إلى الرصيف الثابت فى الخارج.

ونفس الحالة فى قطار يسير بنعومة على القضبان.. لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه إلا لحظة شروعه فى الوقوف، أو لحظة إطلالك من النافذة على الرصيف الثابت فى الخارج.

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو من الأرض.. كما لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها. وإنما تستطيع رصدها من القمر.

لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها.

ولهذا ما كنا لنستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمنى المستمر «أى على عتبة خلود».

ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثوانى كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثوانى أبدًا ولانصرم إدراكنا كما تنصرم الثوانى بدون أن يلاحظ شيئًا.

وهى نتيجة مذهلة تعنى أن هناك جزءًا من وجودنا خارجًا عن إطار المرور الزمنى «أى خالد» هو الذى يلاحظ الزمن من عتبة سكون ويدركه بدون أن يتورط فيه. ولهذا لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسد ترابًا سوف يظل هذا الجزء على حاله حيًّا. حياته الخاصة غير الزمنية.. هذا الجزء هو الروح أو النفس.

وكل منا يستطيع أن يحس بداخله هذا الوجود الروحى أو النفسى على صورة حضور وديمومة وشخوص وكينونة مغايرة تمامًا للوجود المادى المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه.

هذه الحالة الداخلية التى ندركها فى لحظات الصحو الباطنى. والتى سميتها حالة حضور.. هى المفتاح الذى يقودنا إلى الوجود الروحى بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذى اسمه الروح...

ودليل آخر على طبيعتنا الروحية هو شعورنا الفطرى بالحرية، ولو كنا أجسامًا مادية ضمن إطار حياة مادية تحكمنا القوانين المادية الحتمية لما كان هناك معنى لهذا الشعور الفطرى بالحرية.

لنا روح إذن تعلو على الزمن وتتخطى الموت وتتخطى الحتميات المادية.

ماذا عن البعث إذن؟

لم يعد أحد بعد الموت ليخبرنا ماذا جرى له.

ولم يأت يوم البعث لنقدم دليلا ملموسًا وشاهد عيان. وكل ما يمكن قوله فى موضوع البعث أنه حقيقة دينية يرجحها العقل والعلم.

لماذا يرجحها العقل والعلم؟

لأن شواهد الوجود وظواهره تشير جميعًا إلى أن هناك عَوْدًا على بدء، لكل شىء.. بعد النهار يأتى الليل ثم يعود من جديد فيأتى النهار، الشمس تشرق ثم تغرب، ثم تعود فتشرق.

الصيف، والخريف، والشتاء، والربيع، تعود فتتكرر الدورة من جديد، فيأتى الصيف، ثم الخريف، ثم الشتاء إلخ.. بعد اليقظة ونوم الليل نعود فنستيقظ من جديد. وهذا يرجح أنه بعد رقود الموت هناك صحوة بعث.. لأن هناك عودًا لكل شىء.. والله يسمى نفسه فى القرآن المبدئ والمعيد.

﴿كما بدأكم تعودون﴾ ٢٩ - الأعراف

كل شيء يجرى فى فلك من الذرة إلى المجرة حتى الحضارات لها دورات والتاريخ له دورات.

هذا العود الأبدى فى كل شيء يرجح البعث.

الدليل الآخر على البعث هو النظام المحكم الذى ليس فيه بادرة خلل واحدة من أكبر المجرات حتى أصغر الذرات، حتى الإلكترون الذى لا يُرى نجد النظام والقانون يهيمن على كل شيء.. حتى الإلكترون المتناهى فى الصغر لا يستطيع أن ينتقل من فلك إلى فلك فى الذرة إلا إذا أعطى أو أخذ مقدارًا من الطاقة يساوى حركته.. وكأنه راكب قطار لا يستطيع السفر إلى أى مكان بدون تذكرة.. فكيف نتصور فى هذا النظام المحكم أن يهرب قاتل. أو يفر ظالم من الجزاء لمجرد أنه ضلل البوليس؟ إن العقل يتصور أنه لابد سيلقى جزاءه حتمًا، وأن هناك عالمًا آخر يسوى فيه الحساب قطعًا.. هكذا يقول العدل.

ونحن مفطورون على تحرى العدل وعلى حب العدل والبحث عن العدل ومحاولة تحقيق العدل.

ومع ذلك فالعدل فى الدنيا غير موجود.

وكما يقول أهل الفكر: إذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء.. فلابد أن الظمأ إلى العدل يدل على وجود العدل.. فإن لم يكن موجودًا فى دنيانا فلابد أن له يومًا وساعة تنصب فيها موازينه.

كل هذه مؤشرات تشير وترجح أن هناك بعثًا وحسابًا وعالمًا آخر.

والمؤمن الذى يصدق القرآن فى غير حاجة إلى هذه الاستدلالات، لأنه آمن بقلبه وأراح نفسه من الجدل.

يبقى بعد ذلك أن نسأل.. وما الروح؟

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ ٨٥ - الإسراء

هى لغز ولا أحد يعلم عنها شيئًا.

والعجيب أنه كلما جاء ذكر الروح فى القرآن ذكرت معها كلمة من أمر ربى:

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ ١٥ - غافر

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ ٢ - النحل

﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ ٤ - القدر

﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ ٥٢ - الشورى

دائمًا كلمة «من أمرنا».. «من أمره».. «من أمر ربى» كلما ذكرت الروح.

أيكون أمر الله روحًا؟

وكلمة الله روحًا؟

ألم يقل الله عن المسيح عليه السلام إنه:

﴿بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ ٤٥ - آل عمران

وإنه:

﴿كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ ١٧١ - النساء

الكلمة.. الأمر.. الروح.. هل هى ألفاظ مترادفة لمعنى واحد.

هى مجرد إشارات.

ولا أحد يعلم الحقيقة إلا العليم الخبير.

يبقى بعد ذلك سؤالك عن تحضير الأرواح.

وتحضير الأرواح عندنا أمر مشكوك فيه.

مشكوك فيه أن ظواهر الغرفة المظلمة سببها حضور روح فلان أو علان.

ومفكر كبير مثل هنرى سودر يقول: إن تلك الظواهر مصدرها العقل الباطن للوسيط، والقوى الروحية للوسيط ذاته.. ولا شيء يحضر بالمرة.

ويقول المفكرون الهنود: إن الذى يتلبس الوسيط فى أثناء التحضير هى أرواح سفلية تعرف بعض الأشياء عن الموتى، وتستخدمها فى السخرية بعقول الموجودين والضحك عليهم.

ويقول الصوفية المسلمون إن الذى يحضر فى تلك الجلسات ليس الروح ولكن القرين، وهو الجن الذى كان يصاحب الميت فى أثناء حياته.. وهو بحكم هذه الصحبة يعرف أسراره.. ولأن الجن معمر فإنه يبقى حيًّا بعد موت صاحبه.. وهو الذى يحضر الجلسات ويفشى أسرار صاحبه، ويقلد صوته وعاداته ليسخر من الموجودين على عادة الجن فى عدائهم للإنسان.

وهم يقولون: إننا إذا دققنا جرس المكتب فإن الذى يحضر هو الخادم.. أما السادة فإنهم لا يتركون عالمهم ويحضرون بهذه السذاجة، وبالمثل فى عالم الأرواح.. فالذى يحضر فى الجلسات ويهرج على الموجودين هى الأرواح السفلية والجن ومَن فى مستواهم.

أما الأرواح البشرية فهى فى عالم آخر هو عالم البرزخ، ولا يمكن استحضارها.. ولكنها قد تتصل بمن تحب فى الحلم أو فى اليقظة إذا توفرت الظروف الملائمة.

ومن الجلسات الكثيرة التى حضرناها ومما جمعنا من خبرة خاصة فى هذا الموضوع نقول: إنه لا يوجد دليل واحد على أن ظواهر الغرفة المظلمة سببها حضور الروح المطلوبة.

وربما كان رأى الصوفية المسلمين أكثر الآراء تفسيرًا لما يحدث.

والمسألة مازالت قيد البحث.

وللأسف الشعوذات فى هذا الموضوع أكثر من الحقائق.. والكلمة الأخيرة لم تقل بعد.

ولا شك أنك سوف تضحك على كلمات مثل الجن والأرواح السفلية.. والقرين.

ولك عذرك.. فإذا كنت لا تؤمن بروحك أنت فكيف يتوقع منك أن تؤمن بجنى.. وإذا كنت لاتؤمن بالله فكيف ينتظر منك أن تؤمن بشياطينه.

ومع ذلك لو كنت ولدت منذ مائة سنة وجاءك رجل يحدثك عن أشعة غير منظورة تخرق الحديد، وصور تنتقل فى الهواء عبر المحيطات فى أقل من ثانية، ورائد فضاء يمشى على تراب القمر.. ألم تكن تضحك وتقهقه وتستلقى على قفاك أضعاف ما تضحك الآن.. وتقول لنفسك.. هذا رجل هارب من مستشفى المجاذيب، ومع ذلك فياها من حقائق ملء السمع والبصر الآن.

# الضمير

قال صاحبى:

– أنتم تتكلمون عن الضمير فى تقديس كما لو كان شيئًا مطلقًا، مع أنه أحد المصنوعات الاجتماعية، عملة نحاسية لا أكثر، صُكت ودمغت وسُبكت فى فرن التعاملات الاجتماعية، وهو عندنا شىء تتغير أحكامه وضوابطه وفق المصالح الجارية.. القيمة التى تفيد نقول عنها خيرًا، والقيمة التى تضر نقول عنها شرًا، ولو كانت هذه القيمة هى العفة التى تتمسكون بها كعيونكم.

قلت له فى هدوء:

– نعم.. هذا هو رأى الفلسفة المادية على ما أسمع.. إن الضمير سلطة زجر وردع نبتت من الدواعى الاجتماعية.. مجرد تحصيل خبرة تتفاوت بين شخص وشخص وبين عصر وعصر وبين أمة وأمة.

هذا كلامكم:

ولكن الحقيقة غير ذلك.

الحقيقة أن الضمير نور وضعه الله فى الفطرة ومؤشر ودليل وبوصلة نولد بها.. تهدينا إلى الحقائق وكل دور الاكتساب الاجتماعى، إنه يجلو مرآة هذه البوصلة ويصقل زجاجها.

ولنا على ذلك براهين تؤيدنا وتشجب كلامكم.

انظر إلى عالم الحيوان حيث لا مجتمع. ترى القطة تتبرز ثم تستدير لتغطى فضلاتها بالتراب، فى أى مجتمع قططى تعلمت القطة هذا الوازع؟

وكيف ميزت بين القذارة والنظافة؟

وأنت ترى القطة تسرق السمكة فإذا ضبطتها وضربتها على رأسها طأطأت ونكست بصرها فى إحساس واضح بالذنب.. وتراها تلهو مع الأطفال فى البيت فتكسر «فازة» فى أثناء اللعب.. فماذا يحدث؟ إنها تجرى فى فزع وتختبئ تحت الكراسى وقد أدركت أنها أخطأت.

كل هذه شواهد وملامح ضمير.

وليس فى مملكة القطط دواعٍ لنشأة هذه المشاعر.. ولا نرى حتى مجتمعًا قططيًّا من الأساس.

وتقاليد الوفاء الزوجى فى الحمام.

ونبل الحصان فى ارتباطه بصاحبه حتى الموت.

وكبرياء الأسد وترفعه عن الهجوم على فريسته من الخلف.

وخجل الجمل وتوقفه عن مضاجعة أنثاه إذا وجد أن هناك عينًا ترقبه.

ثم تلك الحادثة البليغة التى رآها جمهور المشاهدين فى السيرك القومى بالقاهرة.. حينما قفز الأسد على المدرب محمد الحلو من الخلف وأنشب مخالبه فى كتفه وأصابه بجرح قاتل.

وبقية الحادثة يرويها موظفو السيرك.. كيف امتنع الأسد عن الطعام.. وحبس نفسه فى زنزانته لا يبرحها.. وكيف نقلوه إلى حديقة الحيوان وقدموا

له أنثى لتروح عنه فضربها وطردها.. وظل على صيامه ورفضه للطعام ثم انقض على يده الآثمة وظل يمزقها حتى نزف ومات.

حيوان ينتحر ندمًا وتكفيرًا عن جريمته.

من أى مجتمع فى دنيا السباع أخذ الأسد هذه التقاليد.. هل فى مجتمع السباع أن افتراس الإنسان جريمة تدعو إلى الانتحار.

نحن هنا أمام نبل وخلق وضمير لا نجده فى بشر.

ونحن أمام فشل كامل للتفسير المادى وللتصور المادى لحقيقة الضمير.

ولا تفسير لما نراه سوى ما يقوله الدين. من أن الضمير هو نور وضعه الله فى الفطرة، وأن كل دور الاكتساب الاجتماعى أن يجلو صدأ النفس فتشف عن هذا النور الإلهى.

وهذا هو ما حدث بين الأسد ومدربه.. المعاشرة والمحبة والمصاحبة صقلت تلك النفس الحيوانية فأيقظت ذلك القبس الرحمانى.. فإذا بالأسد يحزن ويندم وينتحر كمدًا كالبشر.

«الحلال بيِّن والحرام بيِّن».. كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام.

«استفت قلبك وإن أفتاك الناس».

لسنا فى حاجة إلى كلية شريعة لنعرف الخطأ من الصواب، والحق من الباطل والحرام من الحلال.. فقد وضع الله فى قلب كل منا كلية شريعة.. وميزانًا لا يخطئ. وكل ما نحن مطالبون به أن نجلو نفوسنا من غواشى المادة ومن كثافة الشهوات. فنبصر ونرى ونعرف ونميز بدون عكاز «الخبرة الاجتماعية» وذلك بنور الله الذى اسمه الضمير.

﴿يأيُّها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فُرقانًا﴾ ٢٩ - الأنفال

يقول الله فى الحديث القدسى - للصوفى محمد بن عبد الجبار:
«كيف تيأس منى وفى قلبك سفيرى ومتحدثى».

الضمير حقيقة ثابتة والقيم الأخلاقية الأساسية هى بالمثل ثابتة فقتل البرىء لن يصبح يومًا ما فضيلة، وكذا السرقة والكذب وإيذاء الآخرين والفحشاء والفجور والبذاءة والغلظة والقسوة والنفاق والخيانة كل هذه نقائص خلقية، وسوف تظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكذلك سوف تظل المحبة والرحمة والصدق والحلم والعفو والإحسان فضائل.. ولن تتحول إلى جرائم إلا إذا فسدت السموات والأرض وساد الجنون وانتهى العقل..

# هل مناسك الحج وثنيّة؟

قال صاحبى وهو يفرك يديه ارتياحًا ويبتسم ابتسامة خبيثة تبدى نواجذه، وقد لمعت عيناه بذلك البريق الذى يبدو فى وجه الملاكم حينما يتأهب لتوجيه ضربة قاضية.

– ألا تلاحظ معى أن مناسك الحج عندكم هى وثنية صريحة. ذلك البناء الحجرى الذى تسمونه الكعبة وتتمسحون به وتطوفون حوله، ورجم الشيطان.. والهرولة بين الصفا والمروة، وتقبيل الحجر الأسود.. وحكاية السبع طوفات والسبع رجمات والسبع هرولات وهى بقايا من خرافة الأرقام الطلسمية فى الشعوذات القديمة، وثوب الإحرام الذى تلبسونه على اللحم.. لا تؤاخذنى إذا كنت أجرحك بهذه الصراحة ولكن لا حياء فى العلم.

وراح ينفث دخان سيجارته ببطء ويراقبنى من وراء نظارته.

قلت فى هدوء:

– ألا تلاحظ معى أنت أيضًا فى قوانين المادة التى درستها أن الأصغر

يطوف حول الأكبر، الإلكترون فى الذرة يدور حول النواة، والقمر حول الأرض، والأرض حول الشمس، والشمس حول المجرة، والمجرة حول مجرة أكبر، إلى أن نصل إلى «الأكبر مطلقًا» وهو الله.. ألا نقول «الله أكبر».. أى أكبر من كل شىء.. وبالتالى وحسب قانونك العلمى يجب أن يطوف حوله كل شىء.. وأنت الآن تطوف حوله ضمن مجموعتك الشمسية برغم أنفك ولا تملك إلّا أن تطوف. فلا شىء ثابتًا فى الكون إلا الله، هو الصمد الصامد الساكن، والكل فى حركة حوله.. وهذا هو قانون الأصغر والأكبر الذى تعلمته فى الفيزياء.. أما نحن فنطوف باختيارنا حول بيت الله.. وهو أول بيت اتخذه الإنسان لعبادة الله.. فأصبح من ذلك التاريخ السحيق رمزًا وبيتًا لله.. ألا تطوفون أنتم حول رجل محنط فى الكرملين تعظمونه وتقولون إنه أفاد البشرية، ولو عرفتم لشكسبير قبرًا لتسابقتم إلى زيارته بأكثر مما نتسابق إلى زيارة قبر محمد عليه الصلاة والسلام.. ألا تضعون باقة ورد على نصب حجرى وتقولون إنه يرمز للجندى المجهول، فلماذا تلوموننا لأننا نلقى حجرا على نصب رمزى نقول إنه يرمز إلى الشيطان.. ألا تعيش فى هرولة من ميلادك إلى موتك، ثم بعد موتك يبدأ ابنك الهرولة من جديد وهى نفس الرحلة الرمزية من الصفا «الصفاء أو الخواء أو الفراغ رمز للعدم» إلى المروة وهى النبع الذى يرمز إلى الحياة والوجود.. من العدم إلى الوجود ثم من الوجود إلى العدم.. أليست هذه هى الحركة البندولية لكل المخلوقات.. ألا ترى فى مناسك الحج تلخيصًا رمزيًا عميقًا لكل هذه الأسرار..

ورقم ٧ الذى تسخر منه.. دعنى أسألك ما السر فى أن درجات السلم الموسيقى ٧: صول، لا، سى، دو، رى، مى، فا. ثم بعد المقام السابع يأتى جواب الصول من جديد.. فلا نجد ٨ وإنما نعود إلى سبع درجات أخرى وهلم جرًا، وكذلك درجات الطيف الضوئى ٧ وكذلك تدور الإلكترونات حول نواة الذرة فى نطاقات ٧ والجنين لا يكتمل إلا فى الشهر ٧ وإذا ولد قبل ذلك يموت، وأيام الأسبوع عندنا وعند جميع أفراد الجنس البشرى ٧

أيام، وضعوها كذلك دون أن يجلسوا ويتفقوا.. ألا يدل ذلك على شيء.. أم أن كل هذه العلوم هي الأخرى شعوذات طلسمية!

ألا تقبّل خطابًا من حبيبتك.. هل أنت وثنى؟ فلماذا تلومنا إذا قبّلنا ذلك الحجر الأسود الذى حمله نبينا محمد ﷺ فى ثوبه وقبله. لا وثنية فى ذلك بالمرة.. لأننا لا نتجه بمناسك العبادة نحو الحجارة ذاتها.. وإنما نحو المعانى العميقة والرموز والذكريات.

إن مناسك الحج هى عدة مناسبات لتحريك الفكر وبعث المشاعر وإثارة التقوى فى القلب، أما ثوب الإحرام الذى نلبسه على اللحم ونشترط ألا يكون مخيطًا فهو رمز للخروج من زينة الدنيا وللتجرد التام أمام حضرة الخالق.. تمامًا كما نأتى إلى الدنيا فى اللفة، ونخرج من الدنيا فى لفة، وندخل القبر فى لفة.. ألا تشترطون أنتم لبس البدل الرسمية لمقابلة الملك؟ ونحن نقول: إنه لا شيء يليق بجلالة الله إلّا التجرد وخلع جميع الزينة لأنه أعظم من جميع الملوك، ولأنه لا يصلح فى الوقفة أمامه إلا التواضع التام والتجرد.. ولأن هذا الثوب البسيط الذى يلبسه الغنى والفقير والمهراجا والمليونير أمام الله فيه معنى آخر للأخوة برغم تفاوت المراتب والثروات.

والحج عندنا اجتماع عظيم ومؤتمر سنوى، ومثله صلاة الجمعة، وهى المؤتمر الصغير الذى نلتقى فيه كل أسبوع.

هى كلها معان جميلة لمن يفكر ويتأمل.. وهى أبعد ما تكون عن الوثنية.

ولو وقفت معى فى عرفة بين عدة ملايين يقولون «الله أكبر»، ويتلون القرآن بأكثر من عشرين لغة، ويهتفون لبيك اللهم لبيك ويبكون ويذوبون شوقًا وحبًّا - لبكيت أنت أيضًا بدون أن تدرى، وذبت فى الجمع الغفير من الخلق.. وأحسست بذلك الفناء والخشوع أمام الإله العظيم مالك الملك الذى بيده مقاليد كل شيء.

# لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد؟

قال صاحبى وهو ينتقى عباراته:

– لا أريد أن أجرحك فأنا أعلم اعتزازك بالقرآن وأنا معك فى أنه كتاب قيم.. ولكن لماذا لا يكون من تأليف محمد؟.. إن رجلا فى عظمة محمد لا يستغرب منه أن يضع كتابًا فى عظمة القرآن.. وسوف يكون هذا منطقيًّا أكثر من أن نقول إن الله أنزله. فإنا لم نر الله ينزل من السماء شيئًا.. ونحن فى عصر من الصعب أن نقنع فيه إنسانًا بأن هناك ملاكًا اسمه جبريل نزل من السماء بكتاب ليوحى به إلى أحد.

قلت فى هدوء:

– بل نحن فى عصر يسهل فيه تمامًا أن نصدق بأن هناك ملائكة لا تُرى، وبأن الحقائق يمكن أن تلقى إلى الإنسان وحيًا.. فهم يتكلمون اليوم عن أطباق طائرة تنزل على الأرض من كواكب بعيدة وأشعة غير منظورة تقتل، وأمواج لاسلكية تحدد الأهداف وتضربها.. وصور تتحول إلى ذبذبات فى

الهواء ثم تستقبل فى أجهزة صغيرة كعلب التبغ.. وكاميرات تصور الأشباح.. وعيون ترى فى الظلام.. ورجل يمشى على القمر.. وسفينة تنزل على المريخ..

لم يعد غريبًا أن نسمع أن الله أرسل ملكًا خفيًّا من ملائكته.. وأنه ألقى بوحيه على أحد أنبيائه.. لقد أصبح وجود جبريل اليوم حقيقة من الدرجة الثانية.. وأقل عجبًا وغرابة مما نرى ونسمع كل يوم.

أما لماذا لا نقول إن القرآن من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام.. فلأن القرآن بشكله وعباراته وحروفه وما احتوى عليه من علوم ومعارف وأسرار وجمال بلاغى ودقة لغوية هو مما لا يدخل فى قدرة بشر أن يؤلفه.. فإذا أضفنا إلى ذلك أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم فى مدرسة ولم يختلط بحضارة، ولم يبرح شبه الجزيرة العربية، فإن احتمال الشك واحتمال إلقاء هذا السؤال يغدو مستحيلا.. والله يتحدى المنكرين أمثالك ممن زعموا أن القرآن مؤلف.

﴿قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾
٣٨ - يونس

استعينوا بالجن والملائكة وعباقرة الإنس وأتوا بسورة من مثله ومازال التحدى قائمًا ولم يأت أحد بشىء.

وإذا نظرنا إلى القرآن فى حياد وموضوعية فسوف نستبعد تمامًا أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤلفه.

أولًا: لأنه لو كان مؤلفه لبثَّ فيه همومه وأشجانه، ونحن نراه فى عام واحد يفقد زوجه خديجة وعمه أبا طالب ولا سند له فى الحياة غيرهما.. وفجيعته فيهما لا تقدر.. ومع ذلك لا يأتى لهما ذكر فى القرآن ولا كلمة.. وكذلك يموت ابنه إبراهيم ويبكيه، ولا يأتى لذلك خبر فى القرآن.. القرآن معزول تمامًا عن الذات المحمدية.

بل إن الآية لتأتى مناقضة لما يفعله محمد ﷺ وما يفكر فيه.. وأحيانًا تنزل الآية معاتبة له كما حدث بصدد الأعمى الذى انصرف عنه النبى إلى أشراف قريش:

**﴿عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يَزَّكَّى. أو يذَّكَّر فتنفعه الذكرى﴾** ١ - ٤ - عبس

وأحيانًا تنزل الآية فتنقض عملا من أعمال النبى:

**﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عَرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾** ٦٧ - ٦٨ - الأنفال

وأحيانًا يأمر القرآن محمدًا ﷺ بأن يقول لأتباعه ما لا يمكن أن يقوله لو أنه كان يؤلف الكلام تأليفًا:

**﴿قل ما كنت بِدعًا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم﴾**
٩ - الأحقاف

لا يوجد نبى يتطوع من تلقاء نفسه ليقول لأتباعه لا أدرى ما يُفعل بى ولا بكم.. لا أملك لنفسى ضرًّا ولا نفعًا.. ولا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

فإن هذا يؤدى إلى أن ينفضَّ عنه أتباعه.

وهذا ما حدث فقد اتخذ اليهود هذه الآية عذرًا ليقولوا.. ما نفع هذا النبى الذى لا يدرى ماذا يفعل به ولا بنا.. هذا رجل لا جدوى فيه.

مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن يؤلفها النبى لو كان يضع القرآن من عند نفسه.

**ثانيًا:** لو نظرنا بعد ذلك فى العبارة القرآنية لوجدنا أنها جديدة منفردة فى رصفها وبنائها ومعمارها ليس لها شبيه فيما سبق من أدب العرب ولا شبيه فيما

أتى لاحقًا بعد ذلك.. حتى لتكاد اللغة تنقسم إلى شعر ونثر وقرآن.. فنحن أمام كلام هو نسيج وحده لا هو بالنثر ولا بالشعر. فموسيقى الشعر تأتى من الوزن ومن التقفية فنسمع الشاعر ابن الأبرص الأسدى ينشد:

أقفـر مـن أهـله عبيـد فـليس يبـدى ولا يعيـد

هنا الموسيقى تخرج من التشطير ومن التقفية على الدال الممدودة، فهى موسيقى خارجية.. أما موسيقى القرآن فهى موسيقى داخلية:

﴿والضحى. والليل إذا سجى﴾ ١ - ٢ - الضحى

لا تشطير ولا تقفية فى هذه العبارة البسيطة، ولكن الموسيقى تقطر منها.. من أين؟ إنها موسيقى داخلية.

اسمع هذه الآيات:

﴿ربِّ إنى وهن العَظم منى واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك ربّ شقيًا﴾ ٤ - مريم

وهذه الآيات:

﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلاّ تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العُلى. الرحمن على العرش استوى﴾
١ - ٥ - طه

فإذا تناولت الآيات تهديدًا تحول بناء العبارة ونحتها إلى جلاميد صخر. وأصبح للإيقاع صلصلة نحاسية تصخ السمع:

﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ ١٩ - ٢٠ - القمر

كلمات مثل «صرصرا».. «ومنقعر».. كل كلمة كأنها جلمود صخر.

فإذا جاءت الآية لتروى خبرًا هائلا كما فى نهاية الطوفان تقاصرت

العبارات وكأنها إشارات «مورس» التلغرافية. وأصبحت الآية كلها كأنها تلغراف مقتضب له وقع هائل:

﴿وقيل يٰأرض ابلعي ماءك ويا سماء أقْلِعي وغِيضَ الماء وقضي الأمر﴾
٤٤ - هود

هذا التلون فى نحت الألفاظ وفى بناء العبارة وفى إيقاع الكلمات مع المعانى والمشاعر.. يبلغ فى القرآن الذروة ويأتى دائمًا منسابًا لا تكلّف فيه ولا تعمل.

**ثالثًا:** إذا مضينا فى التحليل أكثر فإنا سنكتشف الدقة البالغة والإحكام المذهل.. كل حرف فى مكانه لا تقديم ولا تأخير.. لا تستطيع أن تضع كلمة مكان كلمة، ولا حرفًا مكان حرف.. كل لفظة تم اختيارها من مليون لفظة بميزان دقيق.

وسنرى أن هذه الدقة البالغة لا مثيل لها فى التأليف.

انظر إلى هذه الكلمة «لواقح» فى الآية:

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾
٢٢ - الحجر

وكانوا يفسرونها فى الماضى على المعنى المجازى بمعنى أن الرياح تثير السحب فتسقط المطر فيلقح الأرض بمعنى «يخصبها» ثم عرفنا اليوم أن الرياح تسوق السحب إيجابية التكهرب وتلقى بها فى أحضان السحب سالبة التكهرب فيحدث البرق والرعد والمطر.. وهى بهذا المعنى «لواقح» أيضًا، ونعرف الآن أيضًا أن الرياح تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة فتلقحها بالمعنى الحرفى، ونعرف أخيرًا أن المطر لا يسقط إلا بتلقيح قطيرات الماء بذرات الغبار فتنمو القطيرات حول هذه الأنوية من الغبار وتسقط مطرًا.

فها نحن أولاء أمام كلمة صادقة مجازيًا وحرفيًا وعلميًا، ثم هى بعد ذلك جميلة فنيًا وأدبيًا وذات إيقاع حلو.

هنا نرى منتهى الدقة فى انتقاء اللفظة ونحتها، وفى آية أخرى:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ ١٨٨ - البقرة

كلمة «تدلوا».

مع أن الحاكم الذى تلقى إليه الأموال فى الأعلى وليس فى الأسفل.. لا، إن القرآن يصحح الوضع، فاليد التى تأخذ الرشوة هى اليد السفلى ولو كانت يد الحاكم.. ومن هنا جاءته كلمة «تدلوا بها إلى الحكام» لتعبر فى بلاغة لا مثيل لها عن دناءة المرتشى وسفله.

وفى آية الجهاد:

﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض﴾
٣٨ - التوبة

القرآن يستعمل كلمة «اثّاقلتم» بدلا من تثاقلتم.. يدمج الحروف إدماجًا، ويلصقها إلصاقًا ليعبر عن جبن الجبناء الذين يلتصقون بالأرض «ويتربسون» فيها من الخوف إذا دعوا إلى القتال، فجاءت حروف الكلمة بالمثل «متربسة».

وفى آية قتل الأولاد من الفقر نراها جاءت على صورتين:

﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيَّاهم﴾
١٥١ - الأنعام

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾
٣١ - الإسراء

والفرق بين الآيتين لم يأتِ اعتباطًا، وإنما جاء لأسباب محسوبة.. فحينما يكون القتل من إملاق فإن معناه أن الأهل فقراء فى الحاضر، فيقول: نحن

«نرزقكم» وإياهم. وحينما يكون قتل الأولاد خشية إملاق فإن معناه أن الفقر هو احتمال فى المستقبل ولهذا تشير الآية إلى الأبناء فتقول نحن «نرزقهم» وإياكم. مثل هذه الفروق لا يمكن أن تخطر على بال مؤلف.

وفى حالات التقديم والتأخير نجد دائمًا أنه لحكمة، نجد أن السارق مقدم على السارقة فى آية السرقة، فى حين أن الزانية مقدمة على الزانى فى آية الزِّنى.. وذلك لسبب واضح، أن الرجل أكثر إيجابية فى السرقة.. أما فى الزِّنَى فالمرأة هى التى تأخذ المبادرة، من لحظة وقوفها أمام المرآة تضع «البارفان» ولمسات «التواليت» وتختار الفستان أعلى الركبة فإنها تنصب الفخاخ للرجل الموعود.

﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ ٢ - النور

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ ٣٨ - المائدة

وبالمثل تقديم السمع على البصر فى أكثر من ١٦ مكانًا

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ ٧٨ - النحل

﴿وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة﴾ ٢٦ - الأحقاف

﴿أسمِعْ بهم وأَبصِرْ﴾ ٣٨ - مريم

﴿إنّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا﴾
٣٦ - الإسراء

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾
٢٢ - فصلت

﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ ١١ - الشورى

دائمًا السمع أولا.

ولا شك أن السمع أكثر إرهافًا وكمالا من البصر.

إننا نسمع الجن ولا نراه.

والأنبياء سمعوا الله وكلّموه ولم يره أحد.

وقد تلقى محمد ﷺ القرآن سمعًا. والأم تميز بكاء ابنها فى الزحام ولا تستطيع أن تميز وجهه. والسمع يصاحب الإنسان أثناء النوم فيظل صاحيًا فى حين تنام عيناه، ومن حاول تشريح جهاز السمع يعلم أنه أعظم دقة وإرهافًا من جهاز البصر.

وبالمثل تقديم المال على الولد:

**﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾**
٨٨ - ٨٩ - الشعراء

**﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم﴾**
١٥ - التغابن

**﴿لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**
١١٦ - آل عمران

**﴿أيحسبون أنَّ ما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾**
٥٥ - ٥٦ - المؤمنون

**﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا﴾**
٥٥ - التوبة

**﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾**
٢٠ - الحديد

والأمثلة على هذا التقديم كثيرة.

والسر أن المال عند أكثر الناس أعز من الولد.

ثم الدقة والخفاء واللطف فى الإعراب. انظر إلى هذه الآية:

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ ٩ - الحجرات

مرة عوملت الطائفتان على أنهما جمع (اقتتلوا) ومرة على أنهما مثنى ﴿فأصلحوا بينهما﴾ والسر لطيف.. فالطائفتان فى القتال تلتحمان وتصبحان جمعًا من الأذرع المتضاربة.. فى حين أنهما فى الصلح تنفصلان إلى اثنين.. وترسل كل واحدة عنها مندوبًا، ومن هنا قال:

﴿وإنْ طائفتان من المؤمنين «اقتتلوا» فأصلحوا «بينهما»﴾

حتى حروف الجر والوصل والعطف تأتى وتمتنع فى القرآن لأسباب عميقة، وبحساب دقيق محكم. مثلا تأتى كلمة «يسألونك» فى أماكن عديدة من القرآن:

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ ٢١٩ - البقرة

﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى﴾ ٨٥ - الإسراء

﴿يسألونك عن الأهلّة قل هى مواقيت للناس والحج﴾ ١٨٩ - البقرة

دائمًا الجواب بكلمة «قل».. ولكنها حين تأتى عن الجبال:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا﴾ ١٠٥ - طه

هنا لأول مرة جاءت «فقل» بدلا من «قل».

والسبب أن كل الأسئلة السابقة كانت قد سئلت بالفعل، أما سؤال الجبال فلم يكن قد سئل بعد، لأنه من أسرار القيامة، وكأنما يقول الله : فإذا سألوك عن الجبال «فقل».. فجاءت الفاء زائدة لسبب محسوب.

أما فى الآية:

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع﴾
١٨٦ - البقرة

هنا لا ترد كلمة «قل» لأن السؤال عن ذات الله.. والله أولى بالإجابة عن نفسه..

كذلك الضمير أنا ونحن.

يتكلم الله بضمير الجمع حيثما يكون التعبير عن «فعل» إلهى تشترك فيه مجموع الصفات الإلهية كالخلق، وإنزال القرآن وحفظه:

﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ٩ - الحجر

﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ ٥٧ - الواقعة

﴿إنّا أنزلناه فى ليلة القدْر﴾ ١ - القدر

﴿أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾
٥٨ - ٥٩ - الواقعة

﴿نحن خلقناهم وشددنا أسْرَهم وإذا شئنا بدَّلْنا أمثالهم تبديلا﴾
٢٨ - الإنسان

«ونحن» هنا تعبر عن جمعية الصفات الإلهية وهى تعمل فى إبداع عظيم مثل عملية الخلق.

أما إذا جاءت الآية فى مقام مخاطبة بين الله وعبده كما فى موقف المكالمة مع موسى.. تأتى الآية بضمير المفرد

﴿إننى أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾
١٤ - طه

الله يقول: «أنا» لأن الحضرة هنا حضرة ذات، وتنبيهًا منه سبحانه على مسألة التوحيد والوحدانية فى العبادة.

ونجد مثل هذه الدقة الشديدة فى آيتين متشابهتين عن الصبر تفترق الواحدة عن الأخرى فى حرف اللام.

يقول لقمان لولده:

﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ ١٧ - لقمان

وفى آية أخرى عن الصبر نقرأ:

﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ ٤٣ - الشورى

الصبر فى الأولى «من عزم الأمور» وفى الثانية «لمن عزم الأمور».. وسر التوكيد باللام فى الثانية أنه صبر مضاعف، لأنه صبر على عدوان بشرى لك فيه غريم، وأنت مطالب فيه بالصبر والمغفرة وهو أمر أشد على النفس من الصبر على القضاء الإلهى الذى لا حيلة فيه.

ونفس هذه الملاحظة عن «اللام» نجدها مرة أخرى فى آيتين عن إنزال المطر وإنبات الزرع:

﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجًا﴾ «أى مالحًا» ٦٨ - ٧٠ - الواقعة

وفى آية ثانية:

﴿أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطامًا﴾ ٦٣ - ٦٥ - الواقعة

فى الآية الأولى «جعلناه» أجاجًا.. وفى الآية الثانية «لجعلناه» حطامًا واللام جاءت فى الثانية لضرورة التوكيد، لأن هناك من سوف يدعى بأنه يستطيع أن يتلف الزرع كما يتلفه الخالق، ويجعله حطامًا. فى حين لن يستطيع أحد من البشر أن يدعى أن فى إمكانه أن ينزل من سحب السماء مطرًا مالحًا فلا حاجة إلى توكيد باللام.

ونفس هذه الدقة نجدها فى وصف إبراهيم لربه فى القرآن بأنه:

﴿الذى يميتنى ثم يحيين﴾ ٨١ - الشعراء

﴿والذى هو يطعمنى ويسقين﴾ ٧٩ - الشعراء

فجاء بكلمة «هو» حينما تكلم عن «الإطعام» ليؤكد الفعل الإلهى، لأنه سوف يدعى الكل أنهم يطعمونه. ويسقونه، على حين لن يدعى أحد بأنه يميته ويحييه كما يميته الله ويحييه.

ونجد هذه الدقة أيضًا حينما يخاطب القرآن المسلمين قائلا:

﴿اذكرونى أذكركم﴾ ١٥٢ - البقرة

ويخاطب اليهود قائلا:

﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ ٤٠ - البقرة

فاليهود ماديون لا يذكرون الله إلا فى النعمة والفائدة والمصلحة والمسلمون أكثر شفافية ويفهمون معنى أن يُذكر الله لذاته لا لمصلحة.. وبنفس المعنى يقول الله للخاصة من أولى الألباب:

﴿اتقون يا أولى الألباب﴾ ١٩٧ - البقرة

ويقول للعوام:

﴿اتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة﴾ ٢٤ - البقرة

لأن العوام لا يردعهم إلا النار، أما الخاصة فهم يعلمون أن الله أقوى من كل نار، وأنه يستطيع أن يجعل النار بردًا وسلامًا إنْ شاء.

ونجد مثل هذه الدقة البالغة فى اختيار اللفظ فى كلام إبليس حينما أقسم على ربه قائلا:

﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ ٨٢ - ص

أقسم إبليس بالعزة الإلهية ولم يقسم بغيرها، فأثبت بذلك علمه وذكاءه، لأن هذه العزة الإلهية هى التى اقتضت استغناء الله عن خلقه، فمن شاء

فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يضروا الله شيئًا ، فهو العزيز عن خلقه، الغنى عن العالمين.

ويقول الله فى حديثه القدسى:

«هؤلاء فى النار ولا أبالى، وهؤلاء فى الجنة ولا أبالى».

وهذا مقتضى العزة الإلهية.

وهى الثغرة الوحيدة التى يدخل منها إبليس، فهو بها يستطيع أن يضل ويوسوس، لأن الله لن يقهر أحدًا اختار الكفر على الإيمان.. ولهذا قال «فبعزتك» لأغوينهم أجمعين.

﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ ١٦ - ١٧ الأعراف

ذكر الجهات الأربع، ولم يذكر من فوقهم ولا من تحتهم. لأن «فوق» الربوبية ، «وتحت» تواضع العبودية.. ومن لزم مكانه الأدنى من ربه الأعلى لن يستطيع الشيطان أن يدخل عليه.

ثم ذكر إبليس أن مقعده المفضل للإغواء سوف يكون الصراط المستقيم.. على طريق الخير وعلى سجادة الصلاة، لأن تارك الصلاة والسكير والعربيد ليس فى حاجة إلى إبليس ليضله، فقد تكفلت نفسه بإضلاله، إنه إنسان خرب.. وإبليس لص ذكى، لا يحب أن يضيع وقته بأن يحوم حول البيوت الخربة.

مثل آخر من أمثلة الدقة القرآنية نجده فى سبق المغفرة على العذاب والرحمة على الغضب فى القرآن.. فالله فى «الفاتحة» هو الرحمن الرحيم قبل أن يكون مالك يوم الدين.. وهو دائمًا يُوصف بأنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء... تأتى المغفرة أولاً قبل العذاب إلاّ فى مكانين فى آية قطع اليد:

﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ ٤٠ - المائدة

لأن العقوبة بقطع اليد عذاب دنيوى.. تليه مغفرة أخروية.. وفى كلام عيسى يوم القيامة عن المشركين الذين عبدوه من دون الله .. فيقول لربه:

﴿إنْ تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾
١١٨ - المائدة

فلا يقول فإنك أنت الغفور الرحيم تأدبًا.. ويذكر لهم العذاب قبل المغفرة.. لعظم الإثم الذى وقعوا فيه.

ونجد هذه الدقة القرآنية مرة أخرى فى تناول القرآن للزمن.. فالمستقبل يأتى ذكره على لسان الخالق على أنه ماض.. فأحداث يوم القيامة ترد كلها على أنها ماض:

﴿ونُفخ فى الصور﴾ ٩٩ - الكهف

﴿وانشقت السماء فهى يومئذ واهية﴾ ١٦ - الحاقة

﴿وبُرزت الجحيم للغاوين﴾ ٩١ - الشعراء

﴿وعُرضوا على ربك صفًّا﴾ ٤٨ - الكهف

والسر فى ذلك أن كل الأحداث حاضرها ومستقبلها قد حدثت فى علم الله وليس عند الله زمن يحجب عنه المستقبل، فهو سبحانه فوق الزمان والمكان، ولهذا نقرأ العبارة القرآنية أحيانًا فنجد أنها تتحدث عن زمانين مختلفين، وتبدو فى ظاهرها متناقضة مثل:

﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ ١ - النحل

فالأمر قد أتى وحدث فى الماضى. لكن الله يخاطب الناس بألا يستعجلوه كما لو كان مستقبلا لم يحدث بعد.. والسر كما شرحنا أنه حدث فى علم الله، لكنه لم يحدث بعد فى علم الناس، ولا تناقض.. وإنما دقة وإحكام، وخفاء واستسرار، وصدق فى المعانى العميقة.

هذه بعض الأمثلة للدقة البالغة والنحت المحكم فى بناء العبارة القرآنية وفى اختيار الألفاظ واستخدام الحروف لا زيادة ولا نقص، ولا تقديم ولا تأخير، إلا بحساب وميزان، ولا نعرف لذلك مثيلا فى تأليف أو كتاب مؤلف، ولا نجده إلاّ فى القرآن.

أما لمحات العلم فى القرآن وعجائب الآيات الكونية التى أتت بالأسرار والخفايا التى لم تكتشف إلا فى عصرنا، والتى لم يعرفها محمد ﷺ ولا عصره فهى موضوع آخر يطول، وله جلسة أخرى.

# القرآن لا يمكن أن يكون مؤلفًا

قلت لصديقى:

ربما كان حديث اليوم عن لمحات العلم فى القرآن أكثر إثارة لعقلك العلمى من جلستنا السابقة.. فما كان الفلك الحديث، ولا علوم الذرّة، ولا علوم البيولوجيا والتشريح معروفة حينما نزلت الآيات الكونية فى القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة لتتكلم عن السمٰوات والأرض والنجوم والكواكب، وخلق الجنين وتكوين الإنسان بما يتفق مع أحداث العلوم التى جاء بها عصرنا.

ولم يتعرض القرآن لهذه الموضوعات بتفصيل الكتاب العلمى المتخصص، لأنه جاء فى المقام الأول كتاب عقيدة ومنهج وتشريع.. ولو أنه تعرض لتلك الموضوعات بتفصيل ووضوح لصدم العرب بما لا يفهمونه.. ولهذا لجأ إلى أسلوب الإشارة واللمحة والومضة لتفسرها علوم المستقبل وكشوفه بعد ذلك بمئات السنين.. وتظهر للناس جيلا بعد جيل كآيات ومعجزات على صدق نزول القرآن من الله الحق.

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ ٥٣ - فصلت

لأنهم لم يكتفوا بشهادة الله على كتابه.. فأصبح من الضرورى أن نريهم ذلك بالآيات الكاشفة.

هكذا يقول الله فى كتابه.

ومازال القرآن يكشف لنا يومًا بعد يوم مزيدًا من تلك الآيات العجيبة. وحول كروية الأرض جاءت هذه الآيات الصريحة التى تستخدم لفظ التكوير لتصف انزلاق الليل والنهار كنصفى كرة:

﴿يكوِّر الليل على النهار ويكوِّر النهار على الليل﴾ ٥ - الزمر

ثم الآية التى تصف دحو الأرض.

﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ٣٠ - النازعات

ودحا هى الكلمة الوحيدة فى القاموس التى تعنى البسط والتكوير معًا.. والأرض كما هو معلوم مبسوطة فى الظاهر ومكورة فى الحقيقة، بل هى أشبه بالدحية «البيضة» فى تكويرها.

ثم نقرأ إشارة أخرى صريحة عن أن الجبال تسبح فى الفضاء، وبالتالى فالأرض كلها تسبح بجبالها حيث هى والجبال كتلة واحدة:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صُنع الله الذى أتقن كل شيء﴾ ٨٨ - النمل

فالجبال التى تبدو جامدة ساكنة هى فى الواقع سابحة فى الفضاء.. وتشبيه الجبال بالسحب فيه لمحة أخرى عن التكوين الهش للمادة.. التى نعرف الآن أنها مؤلفة من ذرّات، كما أن السحب مؤلفة من قطيرات.

ثم الكلام عن تواقت الليل والنهار بدون أن يسبق أحدهما الآخر من مبدأ الخلق إلى نهايته.

﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار﴾

٤٠ – يس

إشارة أخرى إلى كروية الأرض.. حيث بدأ الليل والنهار معًا وفى وقت واحد منذ بدء الخليقة كنصفى كرة ولو كانت الأرض مسطحة لتعاقب النهار والليل الواحد بعد الآخر بالضرورة.

ثم تأتى القيامة والأرض فى ليل ونهار فى وقت واحد كما كانت يوم البدء.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس﴾

٢٤ – يونس

وفى قوله تعالى ليلًا أو نهارًا.. تأكيد لهذا التواقت الذى لا تفسير له إلا أن نصف الأرض محجوب عن الشمس ومظلم، والآخر مواجه للشمس ومضىء بحكم كونها كروية، ولو كانت مسطحة لكان لها فى كل وقت وجه واحد، ولما صح أن نقول:

﴿ولا الليل سابق النهار﴾ ٤٠ – يس

ثم تعدد المشارق والمغارب فى القرآن فالله يوصف بأنه:

﴿رب المشارق والمغارب﴾ ٤٠ – المعارج

﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ ١٧ – الرحمن

ولو كانت الأرض مسطحة لكان هناك مشرق واحد ومغرب واحد، يقول الإنسان لشيطانه يوم القيامة:

﴿ياليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقين﴾ ٣٨ – الزخرف

ولا تكون المسافة على الأرض أبعد ماتكون بين مشرقين إلا إذا كانت الأرض كروية.

ثم الكلام عن السماء بأن فيها مسارات ومجالات وطرقًا:

﴿والسماء ذات الحُبُك﴾ ٧ - الذاريات

والحبك هى المسارات.

﴿والسماء ذات الرجع﴾ ١١ - الطارق

أى أنها ترجع كل مايرتفع فيها إلى الأرض.. ترجع بخار الماء مطرًا.. وترجع الأجسام بالجاذبية الأرضية. وترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها من طبقة الأيونوسفير.. كما ترجع الأشعة الحرارية تحت الحمراء معكوسة إلى الأرض بنفس الطريقة فتدفئها فى الليل.

وكما تعكس السماء ماينقذف إليها من الأرض كذلك تمتص وتعكس وتشتت ماينقذف إليها من العالم الخارجى، وبذلك تحمى الأرض من قذائف الأشعة الكونية المميتة، والأشعة فوق البنفسجية القاتلة.. فهى تتصرف كأنها سقف.

﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا﴾ ٣٢ - الأنبياء

﴿والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون﴾ ٤٧ - الذاريات

وهو مايعرف الآن باسم تمدد الكون المضطرد.

وكان مثقال الذرة يعرف فى تلك الأيام بأنه أصغر مثقال، وكانت الذرة توصف بأنها جوهر فرد لاينقسم.. فجاء القرآن ليقول بمثاقيل أصغر تنقسم إليها الذرة.. وكان أول كتاب يذكر شيئًا أصغر من الذرة:

﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ ٣ - سبأ

كل هذه لمحات كاشفة قاطعة عن حقائق مذهلة مثل كروية الأرض، وطبيعة السماء، والذرة، وهى حقائق لم تكن تخطر على بال عاقل أو مجنون فى

ذلك العصر البائد الذى نزل فيه القرآن.

ثم بصيرة القرآن فى تكوين الإنسان وكلامه عن النطفة المنوية وانفرادها بتحديد جنس المولود.

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تُمْنَى﴾ ٤٥ - ٤٦ النجم

وهى حقيقة بيولوجية لم تُعرف إلاّ هذا الزمان.. ونحن نقول الآن إن رأس الحيوان المنوى هو وحده الذى يحتوى على عوامل تحديد الجنس Sex Determination Factor.

وتسوية البنان بما فيه من رسوم البصمات التى أوردها الله فى مجال التحدى عن البعث والتجسيد.

﴿أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نُسوِّى بنانه﴾ ٣ - ٤ - القيامة

بل سوف نجسد حتى ذلك البنان ونسويه كما كان.. وفى ذلك لفتة إلى الإعجاز الملحوظ فى تسوية البنان بحيث لا يتشابه فيه اثنان.

وأوهن البيوت فى القرآن هو بيت العنكبوت.. لم يقل الله خيط العنكبوت بل قال بيت العنكبوت.. وخيط العنكبوت كما هو معلوم أقوى من مثيله من الصلب أربع مرات.. إنما الوهن فى البيت لا فى الخيط.. حيث يكون البيت أسوأ ملجأ لمن يحتمى فيه، فهو مصيدة لمن يقع فيه من الزوار الغرباء.. وهو مقتل حتى لأهله، فالعنكبوت الأنثى تأكل زوجها بعد التلقيح.. وتأكل أولادها عند الفقس، والأولاد يأكل بعضهم بعضًا.

إن بيت العنكبوت هو أبلغ مثال يضرب عن سوء الملجأ وسوء المصير. وهكذا حال من يلجأ لغير الله.. وهنا بلاغة الآية:

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا

**وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾** ٤١ - العنكبوت

وجاءت خاتمة الآية عبارة.. ﴿لو كانوا يعلمون﴾.. إشارة إلى أنه علم لن يظهر. إلا متأخرًا.. ومعلوم أن هذه الأسرار البيولوجية لم تظهر إلا متأخرة.

كذلك نجد فى سورة الكهف.

**﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا﴾** ٢٥ - الكهف

ونعرف الآن أن ثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسى تساوى ثلاثمائة وتسعًا بالتقويم القمرى باليوم والدقيقة والثانية.

وفى سورة مريم يحكى الله تبارك وتعالى عن مريم وكيف جاءها المخاض فأوت إلى جذع النخلة وهى تتمنى الموت، فناداها المنادى أن تهز بجذع النخلة وتأكل ما يتساقط من رطب جنى:

**﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نَسْيًا منسيًّا. فناداها من تحتها ألاّ تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًّا. وهُزّى إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطبًا جَنيًّا. فكُلى واشربى وقرّى عينًا﴾**

٢٣ - ٢٦ - مريم

ولماذا الرطب ؟!!

إن أحدث بحث علمى عن الرطب يقول: إن فيه مادة قابضة للرحم تساعد على الولادة، وتساعد على منع النزيف بعد الولادة، مثل مادة Oxytocin، وأن فيه مادة ملينة.. ومعلوم طبيًّا أن الملينات النباتية تفيد فى تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للقولون.

إن الحكمة العلمية لوصف الرطب وتوقيت تناول الرطب مع مخاض الولادة فيه دقة علمية واضحة.

هذه الأمثلة من الصدق العلمى والصدق المجازى والصدق الحرفى هو ما أشار إليه الله سبحانه واصفًا القرآن بأنه:

﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ ٤٢ - فصلت

وبأنه:

﴿لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ ٨٢ - النساء

اختلافًا بين الآيات وبين بعضها بمعنى تناقضها.. واختلافًا عن الحقائق الثابتة التى سوف تكشفها العلوم.. وكلا الاختلافين نجده دائمًا فى الكتب المؤلفة.. ولهذا يحرص المؤلف على أن يضيف أو يحذف أو يعدل كلما أصدر طبعة جديدة من كتبه.. ونرى النظريات تتلو بعضها البعض مكذبة بعضها البعض.. ونرى المؤلف مهما راعى الدقة يقع فى التناقض.. وهى عيوب لانجدها فى القرآن.

وهو بعد ذلك معجزة، لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ويتنبأ بمستقبل لم يأت. وقد صدقت نبوءات القرآن المتعددة:

عن انتصار الروم بعد هزيمتهم:

﴿غُلِبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيَغلبون. فى بضع سنين﴾ ٢ - ٤ - الروم

و «بضع» فى اللغة هى مابين ثلاث وتسع.. وقد جاء انتصار الروم بعد سبع سنين.

وعن انتصار بدر:

﴿سيُهزم الجمع ويولون الدبر﴾ ٤٥ - القمر

وعن رؤيا دخول مكة:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين﴾ ٢٧ - الفتح

وقد كان.

ومازالت فى القرآن نبوءات تتحقق أمام أعيننا.. فهذا إبراهيم يدعو ربه:

**﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾** ٣٧ - إبراهيم

لقد دعا بالرزق لهذا الوادى الجديب.

ثم جاء وعد الله لأهل مكة بالرخاء والغنى حينما أمرهم بمنع المشركين من زيارة البيت فخافوا البوار الاقتصادى والكساد، «وكان أهل مكة يعتمدون فى رواجهم على حج البيت». فقال ليطمئنهم:

**﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** ٢٨ - التوبة

وهو وعد نراه الآن يتحقق أمامنا فى البترول الذى يتدفق من الصحراء بلا حساب وترتفع أسعاره فى جنون يومًا بعد يوم.. ثم فى كنوز اليورانيوم التى تخفيها تلك الصحارى بما يضمن لها الرخاء إلى نهاية الزمان.

ثم نرى القرآن يحدثنا عن الغيب المطلسم فى أسرار الجن والملائكة مما لم يكشف إلّا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف.. فإذا رأى هؤلاء فهم لا يرون إلا ما يوافق كلمة القرآن، وإذا طالعوا لا يطالعون إلا ما يطابق أسراره.

ثم هو يقدم لنا الكلمة الأخيرة فى السياسة والأخلاق، ونظم الحكم. والحرب والسلم، والاقتصاد والمجتمع، والزواج والمعاشرة، ويشرع لنا من محكم الشرائع مايسبق به ميثاق حقوق الإنسان. كل ذلك فى أسلوب منفرد وعبارة شامخة وبنيان جمالى وبلاغى هو نسيج وحده فى تاريخ اللغة.

سألوا ابن عربى عن سر إعجاز القرآن فأجاب بكلمة واحدة هى: «الصدق المطلق»، فكلمات القرآن صادقة صدقًا مطلقًا، فى حين أقصى مايستطيعه مؤلف هو أن يصل إلى صدق نسبى، وأقصى مايطمع فيه كاتب هو

أن يكون صادقًا حسب رؤيته.. ومساحة الرؤية دائمًا محدودة ومتغيرة من عصر إلى عصر.. كل واحد منا يحيط بجانب من الحقيقة وتفوته جوانب، ينظر من زاوية وتفوته زوايا.. ومايصل إليه من صدق دائمًا صدق نسبي.. أما صاحب العلم المحيط والبصر الشامل فهو الله وحده.. وهو وحده القادر على الصدق المطلق.. ولهذا نقول على القرآن إنه من عند الله. لأنه أصاب الصدق المطلق فى كل شيء.

سألوا محمدًا عليه الصلاة والسلام عن القرآن فقال:

«فيه نبأ ما قبلكم، وفصل مابينكم، وخير مابعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو الذكر الحكيم، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. وهو الذى لا تلتبس به الألسن. ولا تزيغ به العقول. ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء. ولا تنقضى عجائبه».

وهذا هو كتابنا يا صديقى.

ولهذه الصفات مجتمعة لا يمكن أن يكون مؤلفًا.

# شكوك

قال صاحبى:

- تقول إن القرآن لا يتناقض مع نفسه فما بالك بهذه الآية:

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ٢٩ - الكهف

والآية الأخرى التى تنقضها:

﴿وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله﴾ ٣٠ - الإنسان

ثم نجد القرآن يقول عن حساب المذنبين إنهم سوف يُسألون:

﴿ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ ١٩ - الزخرف

﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ ٤٤ - الزخرف

ومرة أخرى يقول:

﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ ٧٨ - القصص

وأنهم سوف يعرفون بسيماهم:

﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ ٤١ - الرحمن

ومرة يقول إنه لا أحد سوف يشد وثاق المجرم.

﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ ٢٦ - الفجر

بمعنى أن كل واحد سوف يتكفل بتعذيب نفسه.

﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ ١٤ - الإسراء

ومرة يقول:

﴿ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾ ٣٢ - الحاقة

قلت له:

- هذه ليست تناقضات.. ولنفكر فيها معًا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. آية صريحة تشير إلى حرية العبد واختياره.. ولكن هذه الحرية لم نأخذها من الله غصبًا وغلابًا.. وإنما أعطاها إيّانا بمشيئته.. فتأتى الآية الثانية لتشرح ذلك فتقول:

﴿وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله﴾ ٣٠ - الإنسان.

أى أن حرية العبد ضمن مشيئة الرب وليست ضدها.. أى أن حرية العبد يمكن أن تناقض الرضا الإلهى فتختار المعصية ولكنها لا يمكن أن تناقض المشيئة.. فهى تظل دائمًا ضمن المشيئة، ولو خالفت الرضا.. وهى نقطة دقيقة شرحناها فى موضوع المخير والمسير.. وقلنا إن التسيير الإلهى هو عين التخيير، لأن الله يختار للعبد من جنس نيته وقلبه.. ومعنى ذلك أنه يريد للعبد نفس ما أراد العبد لنفسه بنيته واختيار قلبه... أى أن العبد مسير إلى ما اختار.. ومعنى ذلك أنه لا إكراه وأنه لا ثنائية ولا تناقض.. وأن التسيير هو عين التخيير. وهى مسألة من أدق المسائل فى فهم لغز المخير والمسير.. وما تسميه أنت تناقضًا هو فى الحقيقة جلاء ذلك السر.

أما الآيات الواردة عن الحساب فإن كل آية تعنى طائفة مختلفة، فهناك

من سوف يُسأل وتطلب شهادته، وهناك من ستكون ذنوبه من الكثرة بحيث تطفح على وجهه، وهؤلاء هم الذين سوف يُعرفون بسيماهم فيؤخذون بالنواصى والأقدام، وهناك المعاند المنكر الذى سوف تشهد عليه يداه ورجلاه:

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ ٦٥ - يس

وهناك من سيكون حسيبًا على نفسه يعذبها بالندم ويشد وثاقها بالحسرة.. وهو الذى لا يوثق وثاقه أحد.

وهناك أكابر المجرمين الجبارين الذين سوف يكذبون على الله، وهم يواجهونه ويحلفون الكذب وهم فى الموقف العظيم:

﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ ١٨ - المجادلة

وهؤلاء هم الذين سوف يسحبون على وجوههم ويوثقون فى السلاسل.

وأبو حامد الغزالى يفسر هذه السلاسل بأنها سلاسل الأسباب.

- وما رأيك فى كلام القرآن عن العلم الإلهى:

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾

٣٤ - لقمان

يقول القرآن إن الله اختص نفسه بهذا العلم لا يعلمه غيره:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو﴾ ٥٩ - الأنعام

فما بالك الآن بالطبيب الذى يستطيع أن يعلم ما بالأرحام، ويستطيع أن يتنبأ إن كان ذكرًا أم أنثى.. وما بالك بالعلماء الذين أنزلوا المطر الصناعى بالأساليب الكيماوية.

– لم يتكلم القرآن عن إنزال المطر وإنما عن إنزال الغيث، وهو المطر لغزير الكثيف الذى ينزل بكميات تكفى لتغيير مصير أمة وإغاثتها ونقلها من حال الجدب إلى حال الخصب والرخاء.. والمطر بهذه الكميات لا يمكن إنزاله بتجربة.

أما علم الله لما فى الأرحام فهو علم كلى محيط وليس فقط علماً بجنس المولود هل هو ذكر أو أنثى، وإنما علم بمن يكون ذلك المولود وما شأنه وماذا سيفعل فى الدنيا، وما تاريخه من يوم يولد إلى يوم يموت: وهو أمر لا يستطيع أن يعلمه طبيب.

– وما حكاية كرسى الله الذى تقولون إنه وسع السموات والأرض.. وعرش الله الذى يحمله ثمانية.

– إن عقلك يسع السموات والأرض وأنت البشر الذى لا تذكر .. فكيف لا يسعها كرسى الله.. والأرض والشمس والكواكب والنجوم والمجرات محمولة بقوة الله فى الفضاء.. فكيف تعجب لحمل عرش..

– وما هو الكرسى وما العرش؟

– قل لى ما الإلكترون أقل لك ما الكرسى؟ قل لى ما الكهرباء؟ قل لى ما الجاذبية؟ قل لى ما الزمان؟ إنك لا تعرف ماهية أى شىء لتسألنى ما الكرسى وما العرش؟ إن العالم مملوء بالأسرار وهذه بعض أسراره.

– والنملة التى تكلمت فى القرآن وحذرت بقية النمل من قدوم سليمان وجيشه:

﴿قالت نملة يَـٰأيُّها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده﴾

١٨ – النمل.

– لو قرأت القليل عن علم الحشرات الآن لما سألت هذا السؤال.. إن

علمْ الحشرات حافل بدراسات مستفيضة عن لغة النمل ولغة النحل.

ولغة النمل الآن حقيقة مؤكدة.. فما كان من الممكن أن تتوزع الوظائف فى خلية من مئات الألوف ويتم التنظيم وتنقل الأوامر والتعليمات بين هذا الحشد الحاشد لولا أن هناك لغة للتفاهم، ولا محل للعجب فى أن نملة عرفت سليمان.. ألم يعرف الإنسان الله؟

- وكيف يمحو الله ما يكتب فى لوح قضائه:

﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ ٣٨ - الرعد

أيخطئ ربكم كما نخطئ فى الحساب فنمحو ونثبت.. أم يراجع نفسه كما نراجع أنفسنا.

- الله يمحو السيئة بأن يلهمك بالحسنة ويقول فى كتابه:

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ ١١٤ - هود

ويقول عن عباده الصالحين:

﴿وأوحينا إليهم فعْل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾
٧٣ - الأنبياء

وبذلك يمحو الله دون أن يمحو وهذا سر الآية ٣٩ من سورة الرعد التى ذكرتها.

- وما رأيك فى الآية؟

﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾ ٥٦ - الذاريات

هل كان الله فى حاجة لعبادتنا؟!

- بل نحن المحتاجون لعبادته.

أتعبد المرأة الجميلة حبًّا بأمر تكليف، أم أنك تلتذ بهذا الحب وتنتشى وتسعد لتذوقك لجمالها؟ كذلك الله وهو الأجمل من كل جميل إذا عرفت جلاله

وجماله وقدره عبدته، ووجدت فى عبادتك له غاية السعادة والنشوة.

إن العبادة عندنا لا تكون إلا عن معرفة.. والله لا يعبد إلا بالعلم.. ومعرفة الله هى ذروة المعارف كلها، ونهاية رحلة طويلة من المعارف تبدأ منذ الميلاد وأول ما يعرف الطفل عند ميلاده هو ثدى أمه، وتلك أول لذة، ثم يتعرف على أمه وأبيه وعائلته ومجتمعه وبيئته، ثم يبدأ فى استغلال هذه البيئة لمنفعته، فإذا هى ثدى آخر كبير يدر عليه الثراء والمغانم والملذات، فهو يخرج من الأرض الذهب والماس، ومن البحر اللآلئ، ومن الزرع الفواكه والثمار، وتلك هى اللذة الثانية فى رحلة المعرفة. ثم ينتقل من معرفته لبيئته الأرضية ليخرج إلى السموات ويضع رجله على القمر، ويطلق سفائنه إلى المريخ فى ملاحة نحو المجهول ليستمتع بلذة أخرى أكبر هى لذة استطلاع الكون، ثم يرجع ذلك الملاح ليسأل نفسه.. ومن أنا الذى عرفت هذا كله.. ليبدأ رحلة معرفة جديدة إلى نفسه.. بهدف معرفة نفسه والتحكم فى طاقاتها وإدارتها لصالحه وصالح الآخرين، وتلك لذة أخرى. ثم تكون ذروة المعارف بعد معرفة النفس هى معرفة الرب الذى خلق تلك النفس. وبهذه المعرفة الأخيرة يبلغ الإنسان ذروة السعادات، لأنه يلتقى بالكامل المتعال الأجمل من كل جميل.. تلك هى رحلة العابد على طريق العبادة.. وكلها ورود ومسرات. وإذا كانت فى الحياة مشقة، فلأن قاطف الورود لابد أن تدمى يديه الأشواك.. والطامع فى ذرى اللانهاية لابد أن يكدح إليها.. ولكن وصول العابد إلى معرفة ربه وانكشاف الغطاء عن عينيه.. ما أروعه. يقول الصوفى لابس الخرقة: «نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف» تلك هى لذة العبادة الحقة.. وهى من نصيب العابد.. ولكن الله فى غنى عنها وعن العالمين.. ونحن لا نعبده بأمرٍ تكليف ولكنا نعبده لأننا عرفنا جماله وجلاله.. ونحن لا نجد فى عبادته ذلًا بل تحررًا وكرامة.. تحررًا من كل عبوديات الدنيا.. تحررًا من الشهوات والغرائز والأطماع والمال.. ونحن نخاف الله فلا نعود نخاف أحدًا بعده ولا نعود نعبأ بأحد.. خوف الله شجاعة.. وعبادته

حرية.. والذل له كرامة.. ومعرفته يقين وتلك هى العبادة.. نحن الذين نجنى أرباحها ومسراتها.. أما الله فهو الغنى عن كل شىء.. إنما خلقنا الله ليعطينا لا ليأخذ منا.. خلقنا ليخلع علينا من كمالاته فهو السميع البصير، وقد أعطانا سمعًا وبصرًا وهو العليم الخبير، وقد أعطانا العقل لنتزود من علمه، والحواس لنتزود من خبرته وهو يقول لعبده المقرب فى الحديث القدسى:

**«عبد أطعنى أجعلك ربانيًّا تقول للشىء كن فيكون».**

ألم يفعل هذا لعيسى عليه السلام.. فكان عيسى يُحيى الموتى بإذنه ويخلق من الطين طيرًا بإذنه ويشفى الأعمى والأبرص بإذنه.

العبودية لله إذن هى عكس العبودية فى مفهومنا.. فالعبودية فى مفهومنا هى أن يأخذ السيد خير العبد، أما العبودية لله فهى على العكس، أن يعطى السيد عَبْدَهُ ما لَا حدودَ له من النعم، ويخلع عليه ما لا نهاية من الكمالات.. فحينها يقول الله:

**﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** ٥٦ – الذاريات

فمعناها الباطن ما خلقت الجن والإنس إلا لأعطيهم وأمنحهم حبا وخيرًا، وكرامة وعزة، وأخلع عليهم ثوب التشريف والخلافة.

فالسيد الرب غنى مستغن عن عبادتنا.. ونحن المحتاجون إلى هذه العبادة والشرف، والمواهب والخيرات التى لا حد لها.

فالله الكريم سمح لنا أن ندخل عليه فى أى وقت بلا ميعاد، ونبقى فى حضرته ما شئنا وندعوه ما وسعنا.. بمجرد أن نبسط سجادة الصلاة ونقول «الله أكبر» نصبح فى حضرته نطلب منه ما نشاء.

أين هو الملك الذى نستطيع أن ندخل عليه بلا ميعاد ونلبث فى حضرته ما نشاء؟!

وفى ذلك يقول مولانا العبد الصالح الشيخ محمد متولى الشعراوى فى شعر جميل:

حسب نفسى عزًّا أننى عبد
يحتفى بى بلا مواعيد رب
هو فى قدسه الأعز ولكن
أنا ألقى متى وحين أحب

ويقول: أرونى صنعة تعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم «يقصد الصلوات الخمس» وتتعرض للتلف!

وهذه بعض المعانى الباطنة فى الآية التى أثارت شكوكك:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾

ولو تأملتها لما أثارت فيك إلاّ الذهول والإعجاب.

# موقف الدين من التطور

قال صاحبى:

- موقفك اليوم سيكون صعبًا، فعليك أن تثبت أن خلق الإنسان جاء على طريقة جلا جلا.. أمسك الخالق قطعة طين ثم عجنها فى يده ونفخ فيها فإذا بها آدم.. وهو كلام تخالفك فيه بشدة علوم التطور التى تقول: إن صاحبك آدم جاء نتيجة سلسلة من الأطوار الحيوانية السابقة، وإنه ليس مقطوع الصلة بأفراد عائلته من الحيوانات، وإنه والقرود أولاد عمومة يلتقون معًا فى سابع جد.. وإن التشابه الأكيد فى تفاصيل البنية التشريحية للجميع يدل على أنهم جميعًا أفراد أسرة واحدة.

قلت وأنا أستعد لمعركة علمية دسمة:

- دعنى أصحح معلوماتك أولا فأقول لك إن الله لم يخلق آدم على طريقة جلا جلا.. ها هنا قطعة طين ننفخ فيها فتكون آدم.. فالقرآن يروى قصة مختلفة تمامًا عن خلق آدم، قصة يتم فيها الخلق على مراحل وأطوار وزمن

إلهى مديد، والقرآن يقول إن الإنسان لم يخرج من الطين مباشرة، وإنما خرج من سلالة جاءت من الطين:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ١٢ - المؤمنون

وأن الإنسان فى البدء لم يكن شيئًا يذكر:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾

١ - الإنسان

وأن خلقه جاء على أطوار.

﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا. وقد خلقكم أطوارًا﴾ ١٣ - ١٤ - نوح

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾ ١١ - الأعراف

﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ ٧١ - ٧٢ - ص

معنى ذلك أن هناك مراحل بدأت بالخلق ثم التصوير.. ثم التسوية ثم النفخ.. «وثم» بالزمن الإلهى معناها ملايين السنين:

﴿إن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ ٤٧ - الحج

انظر إلى هذه المراحل الزمنية للخلق فى سورة السجدة.. يقول الله سبحانه إنه:

﴿وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾

٧ - ٩ - السجدة

فى البدء كان الطين، ثم جاءت سلالة من ماء مهين هى البدايات الأولى

للإنسان التى لم تكن شيئًا مذكورًا، ثم التسوية والتصوير، ثم نفخ الروح التى بها أصبح للإنسان سمع وبصر وفؤاد.. وأصبح آدم.. فآدم إذن نهاية سلسلة من الأطوار وليس بدءًا مطلقًا على طريقة جلا جلا.

﴿والله أنبتكم من الأرض نباتًا﴾ ١٧ - نوح

هنا عملية إنبات بكل ما فى الإنبات من أطوار ومراحل وزمن.

ولكن اللغز الحقيقى هو.. ماذا كانت تلك المراحل بالضبط، وماذا كانت تلك الأطوار؟

هل كل شجرة الحياة من أب واحد.

هى كلها من الطين بحكم التركيب الكيميائى.. وكلها تنتهى بالموت إلى أصلها الترابى.. هذه حقيقة.

ولكننا نقصد من كلمة أب شيئًا أكثر من الأصل الطينى.

والسؤال هو هل تولدت من الطين خلية أولى تعددت وأنجبت كل تلك الأنواع والفصائل النباتية والحيوانية بما فى ذلك الإنسان؟

أم أنه كانت هناك بدايات متعددة.. بداية تطورت إلى نباتات، وبداية تطورت إلى فرع من فروع الحيوان، كالإسفنج مثلا، وبداية أخرى خرج منها فرع آخر كالأسماك، وبداية خرجت منها الزواحف، وبداية خرجت منها الطيور، وبداية خرجت منها الثدييات، وبداية خرج منها الإنسان، وبذلك يكون للإنسان جد منفصل، ويكون لكل نوع جد خاص به؟

إن التشابه التشريحى للفروع والأنواع والفصائل لا ينفى خروج كل نوع من بداية خاصة، وإنما يدل هذا التشابه التشريحى فى الجميع على وحدة الخالق، وأن صانعها جميعًا واحد، لأنه خلقها جميعًا من خامة واحدة وبأسلوب واحد وبخطة واحدة. هذه هى النتيجة الحتمية. ولكن خروجها كلها من أب واحد ليس نتيجة محتمة لتشابهها التشريحى. فوسائل المواصلات تتشابه فيما

بينها العربة والقطار والترام والديزل كلها تقوم على أسس هندسية وتركيبة متشابهة، دالة بذلك على أنها جميعًا من اختراع العقل البشرى.. ولكن هذا لا يمنع أن كل صنف منها جاء من أب مستقل ومن فكرة هندسية مستقلة.

كما أننا لا يصح أن نقول إن عربة اليد تطورت تلقائيًا بحكم القوانين الباطنة فيها إلى عربة حنطور، ثم إلى عربة فورد ثم إلى قطار، ثم إلى ديزل. فالواقع غير ذلك.. وهو أن كل طور من هذه الأطوار جاء بطفرة ذهنية فى عقل المخترع، وقفزة إبداع فى عقل المهندس، لم يخرج نوع من آخر. مع أن الترتيب الزمنى قد يؤيد فكرة خروج نوع من نوع.. ولكن ما حدث كان غير ذلك، فكل نوع جاء بطفرة إبداعية من العقل المخترع، وبدأ مستقلا.

وهذه هى أخطاء داروين والمطبات والثغرات التى وقع فيها حينما صاغ نظريته.

ودعنا نتذكر معًا ما قال داروين فى كتابه «أصل الأنواع»:

كان أول ما اكتشفه داروين فى أثناء رحلته بالسفينة «بيجل» هى الخطة التشريحية الواحدة التى بنيت عليها كل الفصائل الحيوانية.. فالهيكل العظمى واحد فى أغلب الحيوانات الفقرية: الذراع فى القرد هو نفس الجناح فى الطائر، هو نفس الجناح فى الخفاش، كل عظمة هنا تقابلها عظمة تناظرها هناك مع تحورات طفيفة، لتلائم الوظيفة، فالعظام فى الطيور رقيقة وخفيفة ومجوفة وهى مغطاة بالريش. ثم نجد رقبة الزرافة الطويلة بها سبع فقرات، ورقبة الإنسان سبع فقرات، ورقبة القنفد التى لا تذكر من فرط قصرها هى الأخرى بها سبع فقرات، وهناك خمس أصابع فى يد الإنسان، ونجد نفس التخميس فى أصابع القرد، والأرنب، والضفدعة، والسحلية، وفترة الحمل فى الحوت والقرد والإنسان تسعة أشهر، وفترة الإرضاع فى الجميع سنتان، وفقرات الذيل فى القرد نجدها فى الإنسان متدامجة ملتصقة فيما يسمى بالعصعص، ونجد عضلات الذيل قد تحورت فى الإنسان إلى قاع متين

للحوض. ثم نجد القلب بغرفه الأربع فى الحصان والحمار والأرنب والحمامة والإنسان، ونفس الخطة فى تفرع الشرايين والأوردة، ثم نجد نفس الخطة فى الجهاز الهضمى: البلعوم، ثم المعدة. ثم «الاثنا عشر» ثم الأمعاء الدقيقة، ثم الأمعاء الغليظة ثم الشرج والجهاز التناسلى: نفس الخصية، والمبيض، وقنوات الخصية، وقنوات المبيض، وكذلك الجهاز البولى: نفس الكلية، والحالب، وحويصلة البول.. والجهاز التنفسى: القصبة الهوائية، والرئتين. ونجد أن الرئة فى البرمائيات هى نفس كيس العوم فى السمكة.

كان طبيعيا بعد هذا أن يتصور داروين أن الحيوانات كلها أفراد أسرة واحدة تفرقت بهم البيئات فتكيفت كل فصيلة مع بيئتها.. الحوت فى المنطقة الجليدية لبس معطفًا من الشحم.. والدببة لبست الفراء، وإنسان الغابة فى الشمس الاستوائية اسودَّ جلده فأصبح كالمظلة الواقية ليقيه الشمس.. وسحالى الكهوف ضمرت عيونها لأنها لا تجد لها فائدة فى الظلام فأصبحت عمياء فى حين نجد سحالى البرارى مبصرة. والحيوانات التى نزلت الماء طورت أطرافها إلى زعانف، والتى غزت الجو طورت أطرافها إلى أجنحة، وزواحف الأرض طورت أطرافها إلى أرجل.

ثم ألا يحكى الجنين القصة؟ ففى مرحلة من مراحل نموه نراه يتنفس بالخياشيم، ثم تضمر الخياشيم وتظهر فيه الرئتان، وفى مرحلة نجد له ذيلا يضمر الذيل ويختفى، وفى مرحلة نراه يكتسى بالشعر ثم ينحسر بعد ذلك الشعر عن جسمه.

ثم ألا تحكى لنا طبقات الصخور بما حفظت لنا من حفريات قصة متسلسلة الحلقات عن ظهور واختفاء هذه الأنواع الواحد بعد الآخر من الحيوانات البسيطة وحيدة الخلية، إلى عديدة الخلايا، إلى الرخويات، إلى القشريات، إلى الأسماك، إلى البرمائيات، إلى الزواحف، إلى الطيور، إلى الثدييات.. وأخيرًا إلى الإنسان.

ولقد أصاب داروين وأبدع حينما وضع هذه المقدمة القيمة فى التشابه التشريحى بين الحيوانات وأصاب حينما قال بالتطور.

ولكنه أخطأ حينما حاول أن يفسر عملية الارتقاء، وأخطأ حينما حاول أن يتصور مراحل هذا الارتقاء وتفاصيله.

كان تفسير داروين لعملية الارتقاء أنه يتم بالعوامل المادية التلقائية وحدها، حيث تتقاتل الحيوانات بالناب والمخلب فى صراع الحياة الدموى الرهيب فيموت الضعيف ويكون البقاء دائمًا للأصلح. تلك الحرب الناشبة فى الطبيعة هى التى تفرز الصالح والقوى وتشجعه. وتبقى على نسله. وتفسح أمامه سبل الحياة.

وإذا كانت هذه النظرية تفسر لنا بقاء الأقوى فإنما لا تفسر لنا بقاء الأجمل، فإن الجناح المنقوش لا يمتاز بأى صلاحيات مادية أو معاشية عن الجناح الأبيض. وليس أكفأ منه فى الطيران.

وإذا قلنا إن الذَّكر يفضل الجناح المنقوش، فى التزاوج، فسوف نسأل ولماذا.. ما دام هذا النقش لا يمثل أى مزيد من الكفاءة؟

وإذا دخل تفضيل الأجمل فى الحساب فإن النظرية المادية تنهار من أساسها.

وتبقى النظرية بعد ذلك عاجزة عن تفسير لماذا خرج من عائلة الحمار شىء كالحصان. ولماذا خرج من عائلة الوعل شىء رقيق مرهف وجميل كالغزال. مع أنه أقل قوة وأقل احتمالا كيف نفسر جناح الهدهد وريشة الطاووس وموديلات الفراش بألوانها البديعة ونقوشها المذهلة.. نحن هنا أمام يد مصور فنان ماهر يتفنن ويبدع.. ولسنا أمام عملية غليظة كصراع البقاء وحرب المخلب والناب.

والخطأ الثانى فى نظرية التطور جاء بعد ذلك من أصحاب نظرية الطفرة.

والطفرات هى الصفات الجديدة المفاجئة التى تظهر فى النسل نتيجة تغيرات غير محسوبة فى عملية تزاوج الخلية الأنثوية والخلية الذكرية ولقاء الكروموسومات لتحديد الصفات الوراثية.

وأحيانًا تكون هذه الصفات الجديدة صفات ضارة كالمسوخ والتشوهات، وأحيانًا تكون طفرات مفيدة للبيئة الجديدة للحيوان كأن تظهر للحيوان الذى ينزل الماء أرجل مبططة.. فتكون صفة جديدة مفيدة، لأن الأرجل المبططة أنسب للسباحة، فتشجع الطبيعة هذه الصفة وتنقلها إلى الأجيال الجديدة، وتقضى على الصفة القديمة لعدم صلاحيتها، وبذلك يحدث الارتقاء وتتطور الأرجل العادية إلى أرجل غشائية.

وخطأ هذه النظرية أنها أقامت التطور على أساس الطفرات والأخطاء العشوائية.. وأسقطت عملية التدبير والإبداع تمامًا.

ولا يمكن أن تصلح هذه الطفرات العشوائية أساسًا لما نرى حولنا من دقة وإبداع وإحكام فى كل شىء.

إن البعوضة تضع بيضها فى المستنقع.. وكل بيضة تأتى إلى الوجود مزودة بكيسين للطفو.

من أين تعلمت البعوضة قوانين أرشميدس لتزود بيضها بهذه الأكياس الطافية؟

وأشجار الصحارى تنتج بذورًا مجنحة تطير مع الرياح أميالا وتنتثر فى مساحات واسعة بلا حدود.

من أين تعلمت أشجار الصحارى قوانين الحمل الهوائى لتصنع لنفسها هذه البذور المجنحة، التى تطير مئات الأميال بحثًا عن أراض ملائمة للإنبات؟

وهذه النباتات المفترسة التى تصطنع لنفسها الفخاخ والشراك الخداعية

العجيبة لتصيد الحشرات وتهضمها وتأكلها بأى عقل استطاعت أن تصطنع تلك الحيل؟

نحن هنا أمام عقل كلى يفكر ويبتكر لمخلوقاته ويبدع لها أسباب الحيل. لا يمكن تصور حدوث الارتقاء بدون هذا العقل المبدع:

﴿الذى أعطى كل شىء خَلْقَهُ ثم هدى﴾ ٥٠ - طه

والعقبة الثالثة أمام نظرية داروين.. هى ما اكتشفناه الآن باسم الخريطة الكروموسومية. أو خريطة الجينات.. ونحن نعلم الآن أن لكل نوع حيوانى خريطة كروموسومية خاصة به، ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب اختلاف هذه الخريطة الكروموسومية.

نخلص من هذا إلى أن نظرية داروين تعثرت، وإذا كان التشابه التشريحى بين الحيوانات حقيقة متفقًا عليها، وإذا كان التطور أيضًا حقيقة.. فإنّ مراحل هذا التطور وكيفياته مازالت لغزًا.

هل كانت هناك بدايات مستقلة أم أن بعض الفروع تلتقى عند أصول واحدة؟

والتطور وارد باللفظ الصريح فى القرآن.. كما أن مراحل الخلق والتصوير والتسوية ونفخ الروح واردة.

ولكن لم يستقر العلم على نظرية ثابتة لتلك المراحل بعد.. وإذا عدنا لسورة السجدة التى تحكى عن الله أنه:

﴿وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾
٧ - ٩ السجدة

فإن معنى الآية صريح فى أن البدايات الأولى للإنسان التى جاء منها آدم

فيما بعد، وهى تلك التى جاء نسلها من ماء مهين، لم يكن لها سمع ولا أبصار ولا أفئدة.

وإنما جاءت هذه الأبصار والأسماع والأفئدة بعد نفخ الروح، وهى آخر مراحل خلق آدم.

هى إذن بدايات أشبه بالحياة الحيوانية المتخلفة:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾
١ - الإنسان

هو تفسير لا يختلف كثيرًا عن العلوم التى تتحدث عنها.

ولكن نفس الآية قد تعنى معنى آخر هو أطوار الجنين داخل الرحم وكيف يتخلق من بدايات لا سمع فيها ولا بصر ثم يأتى نفخ الروح فى هذه المضغة فى الشهر الرابع فتستوى خلقًا آخر.

آيات الخلق إذن مشتبهات والقرآن يحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير.

والحقيقة بعد هذا مازالت لغزًا.. ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه كشف الحقيقة.. والسؤال مازال مفتوحًا للبحث، وكل ما جاء به العلم فروض.

وربما كانت أرجح الآراء أن التسوية المذكورة فى القرآن ﴿خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك﴾ كانت تسوية سلالية بشىء أشبه بالهندسة الوراثية.. وأن الأمر ليس تطورا كما يقول دارون ولكنه تطوير يحدث بتدخل وفعل إلهى لاعداد الحشوة الحية (وهى فى أصل المنشأ من الطين) لتستقبل نفخة الروح وحلول النفس فيها لتكون آدم.

ثم النفس وحكايتها هى سؤال آخر اكثر الغازا.

هل يكون للنفس تحرير فى القوالب الطينية فتكون لها تجسدات متعداه وتاريخ وتطور هى الأخرى؟... أم إنها على حالها من علم الله بها منذ الأزل.

الله أعلم.. والموضوع كله عماد.

# كلمة لا إله إلا الله

قال صاحبى:

– ألست معى فى أنكم تبالغون كثيرًا فى استخدام كلمة لا إله إلّا الله وكأنها مفتاح لكل باب.. تشيعون بها الميت وتستقبلون الوليد، وتطبعونها على الأختام، وتنقشونها على القلائد، وتصكون بها العملات، وتعلقونها على الجدران. من ينطق بها منكم تقولون إن جسمه أعتق من النار.. فإذا نطق بها مائة ألف مرة دخل الجنة وكأنها طلسم سحرى، أو تعويذة لطرد الجن، أو قمقم لحبس المرَدَة، ثم هذه الحروف التى لا تعرفون لها معنى: الـم.. كهيعص.. طسم.. حم.. الر.

هل أنجو من العذاب إذا قلت لا إله إلّا الله؟ إذن فإنى أقولها وأشهدك وأشهد الحضور على ذلك: لا إله إلّا الله.. هل انتهى الأمر؟

– بل لم تقل شيئًا.

إن لاإله إلاالله لمن يعمل بها وليست لمن يشقشق بها لسانه. لاإلـه إلاالله

منهج عمل وخطة حياة وليست مجرد حروف. ودعنا نفكر قليلا فى معناها.. إننا حينما نقول: لا إله إلا الله نعنى أنه لا معبود إلّا الله، وبين لا وإلّا بين النفى والإثبات فى العبارة، بين هاتين الدفتين تقع العقيدة كلها.. لا النافية تنفى الألوهية عن كل شىء.. عن كل ما نعبد من مشتهيات فى الدنيا: عن المال والجاه والسلطان، واللذات وترف العيش، والنساء الباهرات، والعز الفاره.. لكل هذا نقول لا. لا نعبدك.. لست إلها.. ثم نقول لا لنفوسنا التى تشتهى تلك الأشياء لأن الإنسان يعبد نفسه فى العادة. ويعبد رأيه، ويعبد هواه واختياره ومزاجه، ويعبد ذكاءه ومواهبه وشهرته، ويتصور أن بيده مقاليد الأمور وأقدار الناس والمجتمع.. ويجعل من نفسه إلٰها بدون أن يدرى.. لهذه النفس نحن نقول لا.. لا نعبدك.. لست إلٰها.

نقول «لا» – للمدير والرئيس والحاكم.. لا لست إلٰها.

ومعنى كلمة «إله» أى «فاعل».. والفاعل بحق عندنا هو الله، أما كل هذه الأشياء فوسائط وأسباب. المدير والوزير والرئيس والمال والجاه والسلطان والنفس بذكائها ومواهبها.. لكل هذا نقول لا.. لست إلها.

«إلّا» – واحد نستثنيه ونثبت له تلك الفاعلية والقدرة هو الله.

وبين لا وإلّا بين هذا النفى وهذا الإثبات تقع العقيدة كلها، فمن كان مشغولا بجمع المال وتكديس الثروات وتملق السلطان والتزلف للرؤساء وتحرى اللذات واتباع هوى نفسه وتعشق رأيه والتعصب لوجهة نظره فهو لم يقل لا لكل هذه المعبودات، وهو ساجد فى محرابها بدون أن يدرى، وحينما يقول لا إله إلّا الله فهو يقولها كاذبًا.. يقول بلسانه ما لا يفعل بيديه ورجليه.

ومعنى «لا إله إلّا الله» أنه لا حسيب ولا رقيب إلّا الله. هو وحده الجدير بالخشية والخوف والمراقبة. فمن كان يخاف المرض ومن كان يخاف الميكروب ومن كان يخاف عصا الشرطى وجند الحاكم فإنه لم يقل «لا» لكل تلك الآلهة الوهمية.. وإنما هو مازال ساجدًا لها وقد أشرك مع خالقه كل تلك الآلهة

المزيفة.. فهو كاذب فى كلمة «لا إله إلاّ الله».

ومعنى ذلك أن «لا إله إلا الله» عهد ودستور ومنهج حياة. والمقصود بها.. العمل بها.

فمن عمل بها كانت له طلسماً بالفعل يفتح له كل الأبواب العصية.. وكانت نجاة فى الدنيا والآخرة ومدخلا إلى الجنة.

أما نطق اللسان بدون تصديق القلب وعمل الجوارح فإنه لا يغنى.

و «لا إله إلا الله» تعنى أكثر من هذا موقفًا فلسفيًّا.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود إن «شهادة لا إله إلاّ الله» تتضمن الإقرار بثلاث حقائق.. أن الشاهد موجود، والمشهود موجود. والحضور الذين تلقى أمامهم الشهادة موجودون أيضًا أى أنها إقرار صريح بأن الذات والله والآخرين هم جميعًا وجود حقيقى.

وبهذا يرفض الإسلام الفلسفة المثالية كما يرفض الفلسفة المادية فى ذات الوقت، يرفض اليمين واليسار معًا ويختار موقفًا وسطًا.

يرفض المثالية الفلسفية، لأن المثالية الفلسفية لا تعترف بوجود الآخرين ولا بوجود العالم الموضوعى كحقيقة خارجية مستقلة عن العقل، وإنما كل شىء فى نظر الفلسفة المثالية يجرى كأنه حلم فى دماغ، أو أفكار فى عقل.. أنت والراديو والشارع والمجتمع والصحيفة والحرب كلها حوادث ومَرَاءٍ وأحلام تجرى فى عقلى، لا وجود حقيقى للعالم الخارجى.

وهذا الموقف المثالى المتطرف يرفضه الإسلام وترفضه الشهادة، لأنها كما قلنا إقرار صريح بأن الشاهد والمشهود والحضور الذين تلقى أمامهم الشهادة أى الذات، والله والآخرين، حقائق مقررة.

كما يرفض الإسلام أيضًا الفلسفة المادية، لأن الفلسفة المادية تعترف بالعالم الموضوعى ولكنها تنكر ما وراءه.. تنكر الغيب والله.

والإسلام بهذا يقدم فلسفة واقعية وفكرًا واقعيًا، فيعترف بالعالم الموضوعى، ثم يضيف إلى هذا العالم كل الثراء الذى يتضمنه الوجود الإلهى الغيبى.. ويقدم تركيبًا جدليًا جامعًا بين فكر اليمين وفكر اليسار فى فلسفة جامعة مازالت تتحدى كل اجتهاد المفكرين فتسبق ما سطروا من نظريات ظنية لا تقوم على يقين.

شهادة «لا إله إلّا الله» تعنى إذن منهج حياة، وموقفًا فلسفيًا.

ولهذا فأنت تكذب - وأنت الرجل المادى الذى اخترت موقفًا فلسفيًا ماديا وأنت تنطق بالشهادة - كذبتين.

الكذبة الأولى: أنك تشهد بما ينافى فلسفتك.

والكذبة الثانية: أنك لا تعمل بهذه الشهادة فى حياتك قدر خردلة.

أما حكاية: الم.. كهيعص.. حم.. الر.. فدعنى أسألك.. وما حكاية س ص ولوغاريتم ومعادلة الطاقة ط = ك × س$^{2}$ وهى ألغاز وطلاسم بالنسبة لمن لا يعرف شيئًا فى الحساب والجبر والرياضيات.. وعند العالمين لها معان خطيرة.

كذلك هذه الحروف حينما يكشف لنا عن معناها.

قال صاحبى فى سخرية:

- وهل كشف لك عن معناها؟

قلت وأنا ألقى بالقنبلة:

- هذا موضوع مثير يحتاج إلى كلام آخر طويل سوف يدهشك.

# كهيعص

قلت لصديقى الملحد:

– لا شك أن هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور قد صدمتك حينما طالعتها لأول مرة.. هذه: حم.. طسم.. الم.. كهيعص.. ق.. ص.. ترى ماذا قلت لنفسك وأنت تقرؤها؟

اكتفى بأن يمط شفتيه فى لا مبالاة ويقول فى غمغمة مبتورة:

– يعنى.

– يعنى ماذا؟

– يعنى.. أى كلام يضحك به النبى عليكم.

– حسناً، دعنا نختبر هذا الكلام الذى تدعى أنه كلام فارغ والذى تصورت أن النبى يضحك به علينا.

ودعنا نأخذ سورة صغيرة بسيطة من هذه السور.. سورة: «ق» مثلا.. ونجرى تجربة.. فنعد ما فيها من قافات وسنجد أن فيها ٥٧ قافًا. ثم نأخذ

السورة التالية وهى سورة الشورى وهى ضعفها فى الطول وفى فواتحها حرف «ق» أيضًا.. وسنجد أن فيها هى الأخرى ٥٧ قافًا.

هل هى مصادفة؟.. لنجمع ٥٧ + ٥٧ = ١١٤ عدد سور القرآن.. هل تذكر كيف تبدأ سورة ق.. وكيف تختتم.. فى بدايتها: ﴿ق والقرآن المجيد..﴾ وفى ختامها: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.. وكأنما هى إشارات بأن «ق» ترمز للقرآن.. «ومجموع القافات ١١٤ وهى مجموع سور القرآن».

قال صاحبى فى لا مبالاة:

– هذه أمور من قبيل المصادفات.

قلت فى هدوء:

– سنمضى فى التجربة ونضع سور القرآن فى العقل الإلكترونى ونسأله أن يقدم لنا إحصائية بمعدلات توارد حرف القاف فى جميع السور.

– قال وقد توترت أعصابه وتيقظ تمامًا:

– وهل فعلوها؟

قلت فى هدوء:

– نعم فعلوها.

– وماذا كانت النتيجة.

– قال لنا العقل الإلكترونى إن أعلى المتوسطات والمعدلات موجودة فى سورة ق، وإن هذه السورة قد تفوقت حسابيًّا على كل المصحف فى هذا الحرف.. هل هى مصادفة أخرى.

– غريب!

– وسورة الرعد تبدأ بالحروف «المر» قدم لنا العقل الإلكترونى إحصائية بتوارد هذه الحروف فى داخل السور كالآتى:

ا ترد ٦٢٥ مرة

ل ترد ٤٧٩ مرة.

م ترد ٢٦٠ مرة

ر ترد ١٣٧ مرة.

هذا وفى ترتيب تنازلى: ا ثم ل ثم م ثم ر بنفس الترتيب الذى كتبت به «المر» تنازليًّا، ثم قام العقل الإلكترونى بإحصاء معدلات توارد هذه الحروف فى المصحف كله.. وألقى إلينا بالقنبلة الثانية: أن أعلى المعدلات والمتوسطات لهذه الحروف هى فى سورة الرعد.. وأن هذه السورة تفوقت حسابيًّا فى هذه الحروف على جميع المصحف.

نفس الحكاية فى «الم» سورة البقرة.

ا وردت ٤٥٩٢ مرة.

ل وردت ٣٢٠٤ مرات.

م وردت ٢١٩٥ مرة.

بنفس الترتيب التنازلى «الم».

ثم يقول لنا العقل الإلكترونى إن هذه الحروف الثلاثة لها تفوق حسابى على باقى الحروف فى داخل سورة البقرة.

نفس الحكاية فى «الم» سورة آل عمران.

ا وردت ٢٥٧٨ مرة.

ل وردت ١٨٨٥ مرة.

م وردت ١٢٥١ مرة.

بنفس الترتيب التنازلى «الم» وهى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف.

نفس الحكاية «الم» سورة العنكبوت.

ا وردت ٧٨٤ مرة.

ل وردت ٥٥٤ مرة.

م وردت ٣٤٤ مرة.

بنفس الترتيب التنازلى «الم» وهى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف.

نفس الحكاية فى «الم» سورة الروم.

ا وردت ٥٤٧ مرة.

ل وردت ٣٩٦ مرة.

م وردت ٣١٨ مرة.

بنفس الترتيب التنازلى «الم» ثم هى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف.

وفى جميع السور التى ابتدأت بالحروف «الم» نجد أن السور المكية تتفوق حسابيًّا فى معدلاتها على باقى السور المكية، والمدنية تتفوق حسابيًّا فى معدلاتها من هذه الحروف على باقى السور المدنية.

وبالمثل فى «المص» سورة الأعراف.

يقول لنا العقل الالكترونى إن معدلات هذه الحروف هى أعلى ما تكون فى سورة الأعراف. وأنها تتفوق حسابيًّا على كل السور المكية فى المصحف.

وفى سورة «طه» نجد أن الحرف ط والحرف هـ يتواردان فيها بمعدلات تتفوق على كل السور المكية.. وكذلك فى «كهيعص» مريم ترتفع معدلات هذه الحروف على كل السور المكية فى المصحف.

كما نجد أن جميع السور التى افتتحت بالحروف «حم» إذا ضم بعضها إلى بعض فإن معدلات توارد الحرف ح والحرف م تتفوق على كل السور المكية فى المصحف.

وبالمثل السورتان اللتان افتتحتا بحرف «ص» وهما سورة «ص» والأعراف «المص» ويلاحظ أنهما نزلتا متتابعتين فى الوحى.. إذا ضمتا معًا تفوقتا حسابيًّا فى هذه الحروف على باقى المصحف..

وكذلك السور التى افتتحت بالحروف «الر» وهى: إبراهيم. ويونس، وهود. ويوسف، والحجر، وأربع منها جاءت متتابعة فى تواريخ الوحى.. إذا ضُم بعضها إلى بعض.. أعطانا العقل الإلكترونى أعلى معدلات فى نسبة توارد حروفها «المر» من كل السور المكية فى المصحف.

أما فى سورة «يس» فإننا نلاحظ أن الدلالة موجودة ولكنها انعكست.. لأن ترتيب الحروف انعكس، فالياء فى الأول يس «بعكس الترتيب الابجدى».

ولهذا نرى أن توارد الحرف «ى» والحرف «س» فى السورة هو أقل من تواراده فى جميع المصحف مدنيًا ومكيًا.

فالدلالة الإحصائية هنا موجودة ولكنها انعكست.

كان صاحبى قد سكت تمامًا.

قلت وأنا أطمئنه:

– أنا لا أقول هذا الكلام من عند نفسى، وإنما هى دراسة قام بها عالم مصرى فى أمريكا هو الدكتور رشاد خليفة.. وهذا الكتاب الذى بين يديك يقدم لك هذه الدراسة مفصلة.

Miracle of the Quran

Islamic Productions international in St. Louis mo

وقدمت إليه كتابًا إنجليزيًا مطبوعًا فى أمريكا للمؤلف.

أخذ صاحبى يقلب الكتاب فى صمت.

قلت:

– لم تعد المسألة مصادفة. وإنما نحن أمام قوانين محكمة، وحروف محسوبة كل حرف وضع بميزان ورحت أتلو عليه من سورة الشورى:

﴿الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ ١٧ – الشورى

وأى ميزان؟ نحن هنا أمام ميزان يدق حتى يزن الشعرة والحرف.. أظن

أن فكرة النبى الذى يؤلف القرآن ويقول لنفسه سلفًا سوف أؤلف سورة الرعد من حروف «المر» وأورد بها أعلى معدلات من هذه الحروف على باقى الكتاب وهو لم يؤلف بعد الكتاب مثل هذا الظن لم يعد جائزًا.. وأين هذا الذى يحصى له هذه المعدلات وهى مهمة لا يستطيع أن يقوم بها إلا عقل إلكترونى؟ ولو تكفل هو بها فإنه سيقضى بضع سنين ليحصى الحروف فى سورة واحدة يجمع ويطرح بعلوم عصره وهو لا يعرف حتى علوم عصره، وهل سيؤلف أو يشتغل عدادًا للحروف؟

نحن هنا أمام استحالة.

فإذا عرفنا أن القرآن نزل مفرقًا ومقطعًا على ٢٣ سنة.. فإنا سوف نعرف أن وضع معدلات إحصائية مسبقة بحروفه هى استحالة أخرى.. وأمر لا يمكن أن يعرفه إلّا العليم الذى يعلم كل شىء قبل حدوثه، والذى يحصى بأسرع وأدق من كل العقول الإلكترونية.. الله الذى أحاط بكل شىء علمًا.. وما هذه الحروف المقطعة فى فواتح السور إلا رموز علمه بثها فى تضاعيف كتابه لنكتشفها نحن على مدى الزمان.

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾
٥٣ - فصلت

ولاأقول إن هذه كل أسرار الحروف.. بل هى مجرد بداية لا أحد يدرى إلى أى آفاق سوف توصلنا.

وهذه الحروف بهذه الدلالة الجديدة تنفى نفيا باتًا شبهة التأليف.

ثم هى تضعنا أمام موازين دقيقة ودلالات عميقة لكل حرف، فلا يجرؤ أحدنا أن يقول إنه أمام أى كلام.. ألا ترى يا صاحبى أنك أمام كلام لا يمكن أن يكون أى كلام.

ولم يجب صاحبى.. وإنما ظل يقلب الكتاب الإنجليزى ويتصفحه ثم يعود فيقلبه بدون أن ينطق بحرف.

# المعجزة

قال صاحبى:

لا أفهم كيف يجوز للرب الرحيم الذى تصفونه بأنه رءوف ودود كريم عفو غفور.. كيف يأمر هذا الرب نبيه الخليل المقرب إبراهيم بأن يذبح ولده.. ألا ترى معى أن هذه مسألة صعبة التصديق؟.

– القصة تدل من سياقها وأحداثها على أن مراد الله من إبراهيم لم يكن ذبح ابنه: بدليل أن الذبح لم يحدث.. وإنما كان المراد أن يذبح إبراهيم شغفه الزائد بابنه، ومحبته الزائدة لابنه، وتعلقه الزائد بابنه.. إذ لا يجوز أن يكون فى قلب النبى تعلق بغير الله.. لا دنيا ولا ولد ولا جاه ولا سلطان.. كل هذه الأمور لا يصح أن يتعلق بها قلب النبى.. وكما هو معلوم كان إسماعيل قد جاء لأبيه إبراهيم على كبر وعلى شيخوخة.. فشغف به الشيخ وتعلق به.. فجاء امتحان الله لنبيه ضروريًّا.. وما حدث فى القصة يدل على سلامة هذا التفسير.. فما إن صدع النبى لأمر ربه وأشرع سكينه ليذبح ولده حتى جاء أمر السماء بالفداء.

– وما رأيك فى معجزات إبراهيم العجيبة ودخوله النار دون أن يحترق.. وما فعله موسى من بعده حينما أخرج من عصاه ثعبانًا ثم حينما شق بهذه العصا البحر، ثم حينما أخرج يده من تحت إبطه فإذا هى بيضاء.. ألا تبدو هذه الأمور وكأنها عرض بهلوانى فى سيرك.. وكيف يدلل الله على قدرته وعظمته بهذه البهلوانيات التى هى فى حد ذاتها.. صنوف من اللامعقول.. وأمثلة من خرق النظام.. ألا يبدو أن البرهان الأقوى على عظمة الله هو النظام والعقل والانضباط والقوانين فى سريانها الجميل فى الكون دون أن تخرق..

– لقد فهمت المعجزة خطأ.. وتصورتها خطأ.

المعجزة فى تصورك عمل بهلوانى وخرق للقانون، ولا معقول، ولكن الحقيقة غير ذلك.

ودعنى أقرب الموضوع إلى ذهنك بمثل.. لو أنه قُدر لك أن تعود ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء، ثم تدخل على فرعون مصر فى ذلك الزمن البائد ومعك ترانزستور فى حجم علبة الثقاب يتكلم ويغنى من تلقاء نفسه.. ترى ماذا سيكون حال فرعون وحاشيته – سيهتفون فى ذهول بلا شك معجزة.. سحر.. لا معقول.. خرق لجميع القوانين.. ولكننا نعلم الآن أنه لا إعجاز فى الموضوع ولا سحر، ولا خرق لأى قانون.. بل إن ما يحدث فى داخل الترانزستور هو أمر يجرى حسب قوانين فى علم الإلكترونيات. وإنه معقول تمامًا. وسيكون الأمر أعجب لو أنك دخلت على ملك بابل وفى يدك تليفزيون ينقل الصور من بلاد الروم.. وسوف يصفق ملك آشور عجبًا لو أنك أدرت له أسطوانة بلاستيك فتكلمت.

بل إن التاريخ ليحفظ لنا قصة مماثلة حينما نزل المستعمرون إفريقيا. وحطت أول طائرة لهم فى الغابة وسط البدائيين.. ماذا حدث.. سجد الزنوج العراة على وجوههم ودقوا الطبول وذبحوا القرابين وظنوا أن الله نزل من

سماواته وتصوروا فيها حدث خرقًا لجميع القوانين.. مع أننا نعلم الآن أن الطائرة تطير بقانون وتنزل بقانون. وأنها مصممة حسب القوانين الهندسية المحكمة، وأن طيرانها أمر معقول تمامًا، وأنها لا تخرق قانون الجاذبية. وإنما تتجاوز هذا القانون بقانون آخر هو قانون الفعل ورد الفعل. نحن إذن أمام تفاضل قوانين وليس أمام خرق قوانين.. والماء يصعد فى ساق النخلة ضد الجاذبية ليس بخرق هذه الجاذبية وإنما بمجموعة قوانين فسيولوچية تتفاضل معها. هى قانون تماسك العمود المائى، وقانون الخاصة الشعرية، وقانون الضغط الأزموزى. وهى جميعها قوانين تؤدى إلى شد الماء إلى أعلى.

نحن دائمًا لا نخرج عن العقل ولا عن المعقول، وما حدث لم يكن بهلوانيات.. وإنما كانت دهشة الزنوج البدائيين مردها جهلهم بهذه القوانين، وكذلك دهشتك أمام شق موسى للبحر وإخراجه للثعبان من العصا، وإحياء عيسى للموتى، ودخول إبراهيم للنار بدون أن يحترق.. تصورت أنها لا معقول وخرق للقوانين، وبهلوانيات، فى حين أنها تجرى جميعها على وفاق المشيئة الإلهية التى تتفاضل مع جميع القوانين التى نعرفها.. وهى إذن صنوف من النظام.. ومن المعقول.. ولكن أعلى من مداركنا والله لا يهدم النظام بهذه المعجزات، وإنما يشهدنا على نظام أعلى. وقوانين أعلى، وعقل أكبر من استيعابنا ومشيئة أعلى من ذلك كله.

وقد وقع البهائيون فى نفس غلطتك حينما رفضوا المعجزات، وتصوروا أن قبولها فيه امتهان للعقل، وازدراء بالعقل، فتحايلوا على القرآن وحرّفوا معانيه عن ظاهرها، فموسى لم يشق البحر بعصاه، وإنما كانت عصاه هى الشريعة التى فرقت الحق من الباطل، وبالمثل كانت يده البيضاء هى رمز ليد الخير.. وبالمثل أحيا عيسى النفوس ولم يحى الأجساد.. وفتح العقول ولم يفتح العيون العمى.. وبهذا أخرجوا القرآن عن معانيه الحرفية إلى تأويلات وتفسيرات مجازية ورمزية كلما اصطدموا بشىء لم يعقلوه.

وكان هذا لأنهم أخطئوا فهم المعجزة وتصوروا أنها لا معقول، وخرق للقانون. وهدم للنظام، وهو نفس ما وقعت فيه.

والحق أننا نعيش فى عصر لم تعد تستغرب فيه المعجزات.

وقد رأينا العلم يأخذ بيدنا إلى سطح القمر. وإذا كان العلم البشرى أعطانا كل هذا السلطان، فالعلم الإلهى اللدنى لا شك يمكن أن يمدنا بسلطان أكبر.

استمع إلى هذه الآية الجميلة:

**﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾** ٣٣ - الرحمن

وهذا هو السلطان.. العلم البشرى.. وأعظم منه العلم الإلهى.

# معنى الدين

قال صاحبى:

- اسمع.. إذا كانت عندكم جنة كما تقولون.. فأنا أول واحد سوف يدخلها فأنا أكثر دينًا من كثير من دعاتكم من أصحاب اللحى والمسابح إياهم.

- أكثر دينًا.. ماذا تعنى بهذا؟

- أعنى أنى لا أوذى أحدًا ولا أسرق، ولا أقتل، ولا أرتشى، ولا أحسد، ولا أحقد، ولا أضمر سوءًا لمخلوق، ولا أنوى إلّا الخير، ولا أهدف إلا إلى النفع العام.. أصحو وأنام بضمير مستريح وشعار حياتى هو الإصلاح ما استطعت.. أليس هذا هو الدين ألا تقولون عندكم إن الدين المعاملة.

- هذا شىء له اسم آخر.. اسمه حسن السير والسلوك. وهو من مقتضيات الدين ولكنه ليس الدين. إنك تخلط بين الدين وبين مقتضياته. والدين ليس له إلا معنى واحدًا هو معرفة الإله.. أن تعرف إلهك حق المعرفة،

ويكون بينك وبين هذا الإله سلوك ومعاملة.. أن تعرف إلهك عظيمًا جليلاً قريبًا مجيبًا يسمع ويرى فتدعوه راكعًا ساجدًا خاشعًا خشوع العبد للرب. هذه المعاملة الخاصة بينك وبين الرب هى الدين. أما حسن معاملتك لإخوانك فهى من مقتضيات هذا التدين، وهى فى حقيقة الأمر معاملة للرب أيضًا.

يقول نبينا عليه الصلاة والسلام:

«إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل».

فمن أحب الله أحب مخلوقاته وأحسن إليها.. أما إذا اقتصرت معاملاتك على الناس لا تعترف إلاّ بهم ولا ترى غيرهم ولا ترى غير الدنيا فأنت كافر تمامًا وإن أحسنت السير والسلوك مع هؤلاء الناس.. إنما يدل حسن سيرك وسلوكك على الفطانة والسياسة والكياسة والطبع اللبيب وليس على الدين. فأنت تريد أن تكسب الناس لتنجح فى حياتك، وحسن سيرك وسلوكك ذريعة إلى كسب الدنيا فحسب.. وهذه طباع أكثر الكفار أمثالك.

– صدقنى أنا أشعر أحيانًا بأن هناك قوة.

– قوة..

– نعم ثمة قوة مجهولة وراء الكون. أنا أومن تمامًا بأن هناك قوة.

– وما تصورك لهذه القوة.. أتتصورها كائنًا يسمع ويرى ويعقل ويتعهد مخلوقاته بالرعاية والهداية، وينزل لهم الكتب ويبعث لهم الرسل ويستجيب لصرخاتهم وتوسلاتهم؟

– بصراحة أنا لا أصدق هذا الكلام ولا أتصوره، وأكثر من هذا أراه ساذجًا لا يليق بهذه القوة العظيمة.

– إذن فهى قوة كهرمغنطيسية عمياء تسوق الكون فى عبثية لا خلاق لها.. وهذه هى الصفة التى تليق بقوتك العظيمة.

- ربما.

- بئس ما تصورت إلهك.. خلق لك البصر فتصورته أعمى.. وخلق لك الرشد فتصورته عابثًا أخرق.. والله إنك الكافر بعينه، ولو أحسنت السير والسلوك مدى الدهر.. وإن أعمالك الصالحة مصيرها الإحباط يوم الحساب وأن تتبدد هباءً منثورًا.

ألا يكون هذا ظلمًا.

- بل هو عين العدل.. فقد تصورت هذه الأعمال من ذاتك ليس وراءها الهادى الذى هداك، والرشيد الذى أرشدك.. فظلمت إلهك. وأنكرت فضله، وهذا هو الفرق بين طيبات المؤمن وطيبات الكافر، إذا استوى الاثنان فى حسن السير والسلوك الظاهر. فكلاهما قد يبنى مستشفى لعلاج المرضى.. فيقول الكافر، أنا بنيت هذا المستشفى العظيم للناس.

ويقول المؤمن: وفقنى ربى إلى بناء هذا المستشفى للناس. وما كنت إلا واسطة خير.. وما أكبر الفرق.. واحد أسند الفضل لصاحب الفضل ولم يبق لنفسه فضلا إلاّ مجرد الوساطة وحتى هذه يشكر عليها الله ويقول: أحمدك يا ربى أن جعلتنى سببًا.. والآخر أسند الفضل لنفسه وراح يقول: أنا.. أنا.. أنا كل شىء.. فارق كبير بين الكبرياء والتواضع.. وبين العلو وخفض الجناح.. بين الجبروت والوداعة.. ولهذا فأنتم فى ديانتكم الوثنية وإيمانكم بهذه القوة الكهرمغنطيسية العمياء لا تصلون ولا تسجدون.

- ولماذا نصلى ولمن نصلى.. إنى لا أرى لصلاتكم هذه أى حكمة.. ولماذا كل تلك الحركات أما كان يكفى الخشوع..

- حكمة الصلاة أن يتحطم هذا الكبرياء المزيف الذى تعيش فيه لحظة سجودك وملامسة جبهتك التراب وقولك بلسانك وقلبك: «سبحان ربى الأعلى».. وقد عرفت مكانك أخيرًا وأنك أنت الأدنى وهو الأعلى.. وأنك تراب على التراب، وهو ذات منزهة من فوق سبع سموات.

أما لماذا الحركات فى الصلاة، ولماذا لا نكتفى بالخشوع القلبى، فإنى أسألك بدورى ولماذا خلق لك الجسد أصلا. ولماذا لا تكتفى بالحب الشفوى فتريد أن تعانق وتقبل.. لماذا لا تكتفى بالكرم الشفوى فتجود باليد والمال.. بل خلق الله لك الجسد إذا كان خشوعك صادقًا فاض على جسدك فركعت وسجدت.. وإن كان خشوعك زائفًا لم يتعد لسانك.

– هل تعتقد أنك ستدخل الجنة؟

كلنا سنرِدُ النار، ثم ينجى الله الذين اتقوا. ولا أعرف هل اتقيت أم لا. يعلم هذا علام القلوب، وكل عملى للأسف – حبر على ورق. وقد يسلم العمل ولا تسلم النية.. وقد تسلم النية ولا يسلم الإخلاص.. فيظن الواحد منا أنه يعمل الخير لوجه الله وهو يعمله للشهرة والدنيا والجاه بين الناس.. وما أكثر ما يخدع الواحد منا فى نفسه ويدخل عليه التلبيس وحسن الظن والاطمئنان الكاذب من حيث لا يدرى.. نسأل الله السلامة.

– وهل يستطيع الإنسان أن يكون مخلصًا؟

– لا يملك ذلك من تلقاء نفسه، وإنما الله هو الذى يخلص القلوب. ولهذا يتكلم القرآن فى أكثر الآيات عن المخلصين – بفتح اللام – وليس المخلصين بكسر اللام. ولكن الله وعد بأن «يهدى إليه من ينيب» أى كل من يئوب ويرجع إليه.. فعليك بالرجوع إليه.. وعليه الباقى.

# فزنا بسعادة الدنيا وفزتم بالأوهام

قال صاحبى.. وكانت فى نبرته فرحة رجل منتصر:

– مهما اختلفنا ومهما طال بنا الجدل فلا شك أننا خرجنا من معركتنا معكم منتصرين، فقد فزنا بسعادة الدنيا وخرجتم أنتم ببضعة أوهام فى رءوسكم.. وماذا يجدى الكلام وقد خرجنا من الدنيا بنصيب الأسد.. فلنا السهرة والسكرة، والنساء الباهرات والنعيم الباذخ، واللذات التى لا يعكرها خوف الحرام.. ولكم الصيام والصلاة والتسابيح وخوف الحساب.. من الذى ربح ؟

– هذا لو كان ما ربحتموه هو السعادة.. ولكن لو فكرنا معا فى هدوء لما وجدنا هذه الصورة التى وصفتها عن السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التى لا يعكرها خوف الحرام.. لما وجدنا هذه الصورة إلّا الشقاء بعينه.

– الشقاء.. وكيف ؟

– لأنها فى حقيقتها عبودية لغرائز لا تشبع حتى تجوع وإذا أتخمتها أصابها الضجر والملال وأصابك أنت البلادة والخمول.. هل تصلح أحضان امرأة لتكون مستقرًّ سعادة، والقلوب تتقلب، والهوى لا يستقر على حال، والغوانى يغرهن الثناء.. وما قرأنا فى قصص العشاق إلا التعاسة فإذا تزوجوا كانت التعاسة أكبر وخيبة الأمل أكبر، لأن كلًّا من الطرفين سوف يفتقد فى الآخر الكمال المعبود الذى كان يتخيله.. وبعد قضاء الوطر وفتور الشهوة يرى كل واحد عيوب الآخر بعدسة مكبرة.. وهل الثراء الفاحش إلا عبودية، إذ يضع الغنى نفسه فى خدمة أمواله وفى خدمة تكثيرها وتجميعها وحراستها فيصبح عبدها بعد أن كانت خادمته.. وهل السلطة والجاه إلا مزلق إلى الغرور والكبر والطغيان.. وهل راكب السلطان إلا كراكب الأسد يومًا هو راكبه ويومًا هو مأكوله.. وهل الخمر والسكر والمخدرات والقمار والعربدة والجنس بعيدًا عن العيون وبعيدًا عن خوف الحرام سعادة.. وهل هى إلا أنواع من الهروب من العقل والضمير وعطش الروح ومسئولية الإنسان بالإغراق فى ضرام الشهوة وسعار الرغبات.. وهل هو ارتقاء أو هبوط إلى حياة القرود وتسافد البهائم وتناكح السوائم.. صدق القرآن إذ يقول عن الكفار.. إنهم:

**﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾** ١٢ – محمد

فهو لم ينكر أنهم يتمتعون ولكن كما تتمتع الأنعام – وكما ترعى السوائم.. وهل هذه سعادة – وهل حياة الشهوة تلك إلا سلسلة من الشبق والتوترات والجوع الأكال والتخمة الخانقة التى لا تمت إلى السعادة الحقة بسبب.. وهل تكون السعادة الحقة إلا حالة من السلام والسكينة النفسية والتحرر الروحى من كافة العبوديات كافة.. وهل هى فى تعريفها النهائى إلا «حالة صلح بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والآخرين وبين الإنسان والله».. وهذه المصالحة والسلام والأمن النفسى لا تتحقق إلا بالعمل.. بأن

يضع الإنسان قوته وماله وصحته في خدمة الآخرين، وبأن يحيا حياة الخير نية وعملا، وأن تتصل العلاقة بينه وبين الله صلاة وخشوعًا، فيزيده الله سكينة ومددًا ونورًا.. وهل هذه السعادة إلا الدين بعينه.. ألم يقل الصوفى لابس الخرقة: نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف؟ والذين عرفوا تلك اللذة.. لذة الصلة بالله والصلح مع النفس.. يعلمون أن كلام الصوفى على حق.

- ألم تكن مثلنا من سنوات تسكر كما نسكر، وتلهو كما نلهو، وتسعد بهذه السعادة الحيوانية التى نسعد بها، وتكتب الكفر بعينه فى كتابك: «الله والإنسان» فتسبق به إلحاد الملاحدة فماذا غيرك من النقيض إلى النقيض؟

- سبحانه يغير ولا يتغير.

- اعلم أنك تقول إن كل شىء بفضل الله.. ولكن ماذا كان دورك.. وماذا كان سعيك؟

نظرت حولى فرأيت أن الموت ثم التراب نكتة وعبثًا وهزلا، ورأيت العالم حولى كله محكمًا دقيقًا منضبطًا لا مكان فيه للهزل ولا للعبث.. ولو كانت حياتى عبثًا كما تصور العابثون ونهايتها لا شىء.. فلماذا أبكى، ولماذا أندم، ولما أتحرق وألتهب شوقًا إلى الحق والعدل، وأفتدى هذه القيم بالدم والحياة.

رأيت النجوم تجرى فى أفلاكها بقانون.... ورأيت الحشرات الاجتماعية تتكلم، والنباتات ترى وتسمع وتحس.. ورأيت الحيوانات لها أخلاق.. ورأيت المخ البشرى عجيبة العجائب يتألف من عشرة آلاف مليون خط عصبى تعمل كلها فى وقت واحد فى كمال معجز.. ولو حدث بها عطل هنا أو هناك لجاء فى أثره الشلل والعمى والخرس والتخليط والهذيان، وهى أمور لا تحدث إلا استثناء.. فما الذى يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها، ومن الذى زودها بكل تلك الكمالات.

ورأيت الجمال فى ورقة الشجر، وفى ريشة الطاووس وجناح الفراشة،

وسمعت الموسيقى فى صدح البلابل، وشقشقة العصافير، وحيثما وجهت عينى رأيت رسم رسام وتصميم مصمم، وإبداع يد مبدعة.

ورأيت الطبيعة بناءً محكمًا متكاملاً تستحيل فيها المصادفة والعشوائية.. بل كل شىء يكاد يصرخ.. دبرنى مدبر.. وخلقنى مبدع قدير.

وقرأت القرآن فكان له فى سمعى رنين وإيقاع ليس فى مألوف اللغة، وكان له فى عقلى انبهار.. فهو يأتى بالكلمة الأخيرة فى كل ما يتعرض له من أمور السياسة والأخلاق والتشريع والكون والحياة والنفس والمجتمع برغم تقادم العهد على نزوله أكثر من ألف وأربعمائة سنة.. وهو يوافق كل ما يستجد من علوم برغم أنه أتى على يد رجل بدوى أمىّ لا يقرأ ولا يكتب، فى أمة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات.. وقرأت سيرة هذا الرجل وما صنع.. فقلت.. بل هو نبى.. ولا يمكن أن يكون إلا نبى.. ولا يمكن لهذا الكون البديع إلا أن يكون صنع الله القدير الذى وصفه القرآن.. ووصف أفعاله.

قال صاحبى – بعد أن أصغى باهتمام إلى كل ما قلت.. وراح يتلمس الثغرة الأخيرة:

فماذا يكون الحال لو أخطأت حساباتك وانتهيت بعد عمر طويل إلى موت وتراب ليس بعده شىء؟

– لن أكون قد خسرت شيئًا فقد عشت حياتى كأعرض وأسعد وأحفل ما تكون الحياة.. ولكنكم أنتم سوف تخسرون كثيرًا لو أصابت حساباتى وصدقت توقعاتى.. وإنها لصادقة. وسوف تكون مفاجأتكم هائلة يا صاحبى.

ونظرت فى عمق عينيه وأنا أتكلم فرأيت لأول مرة بحيرة من الرعب تنداح فى كل عين ورأيت أجفانه تطرف وتختلج.

كانت لحظة عابرة من الرعب.. ما لبث أن استعاد بعدها توازنه.. ولكنها

كانت لحظة كافية لأدرك أنه بكل غروره وعناده ومكابرته واقف على جرف من الشك والخواء والفراغ وممسك بلا شيء.

قال لى بنبرة حاول أن يشحنها باليقين:

- سوف ترى أن التراب هو كل ما ينتظرك وينتظرنا.

- هل أنت متأكد.

وللمرة الثانية انداحت فى عينيه تلك البحيرة من الرعب.

قال وهو يضغط على الحروف وكأنما يخشى أن تخونه نبراته:

- نعم...

قلت:

كذبت.. فهذا أمر لا يمكن أن نتأكد منه أبدًا.

وحينما كنت أعود وحدى تلك الليلة بعد حوارنا الطويل كنت أعلم أنى قد نكأت فى نفسه جرحًا.. وحفرت تحت فلسفته المتهاوية حفرة سوف تتسع على الأيام ولن يستطيع منطقه المتهافت أن يردمها.

قلت فى نفسى وأنا أدعو له.. لعل هذا الرعب ينجيه.. فمن سد على نفسه كل منافذ الحق بعناده لا يبقى له إلا الرعب منفذًا.

وكنت أعلم أنى لا أملك هدايته.. ألم يقل الله لنبيه..

**﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾؟.**

ولكنى كنت أتمنى له الهداية وأدعو له بها، فليس أسوأ من الكفر ذنبًا ولا مصيرًا.

# الفهرس

صفحة

| رقم الإيداع | ١٩٩٩/٥٠٦٨ | |
| --- | --- | --- |
| الترقيم الدولى | 977-02-5794-x | ISBN |

١/٩٩/٢٧

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )



## هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.



دار المعارف

٠١/٠٢٠٣٧/٠٠